أيام بين غابات الملايو

رحلة طلابية مثيـــرة

د. عوض إبراهيم عوض

كوالا لمبور / نوفمبر 1993م

أيام بين غابات الملايو

دار المؤتمن للنشر والطباعة والتأليف

1993م

فهرسة مكتبة المؤتمن، بدار الإحسان

عوض إبراهيم عوض

أيام بين غابات الملايو

121 ص؛ 17×24 سم

الطبعة الأولى

نوفمبر 1993م

دار المؤتمن للطباعة والتأليف والنشر

-العلم حق للإنسان أينما كان-

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأُميينَ رسولاً

منهم يتلو عليهِمْ آياتِه ويُزكِيهِمْ

ويُعَلِّمُهم الكِتَابَ والحِكْمَةَ

وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي

ضَلالٍ مُبينْ.

❖ ❖ ❖

صدَقَ اللهُ العظيم

إهـــداء:

إلى الفتى البريطاني موسى نانينا الذي كان له الفضل الأكبر في خوضي المخاطر وركوبي الصعاب بين غابات الملايو سابراً أغوارها وعاقداً العزم على الإسهام قدر المستطاع في تغيير شيءٍ من ملامح الحياة فيها في زمانٍ قلَّ فيه المغامرون، وضاعت فيه ملامح الباحثين عن المجهولِ أو كُنهِ الحقيقة. كما أحيي كل أبطال الرواية الذين عاشوا معي أيام الخوض في متاهات المجهول بين الأحراش وقُنن الجبال وعلى رأسهم الصديق العزيز حَميزارْ والشاب الأصيل جافيد أحسن والفتى الرائع فافاندنج. وإلى أولئك الأطفال الذين عاشوا بيننا وسط الأدغال مؤنسين وحشتنا خلال الليالي الصعبة. وإلى كل من يقرأ هذه السطور أهدي تحياتي واحترامي.

د. عوض إبراهيم عوض

بسم الله الرحمن الرحيم

❄❄❄❄❄

مدخل

عزيزي القارئ هذا الكتابُ الذي بين يديك يمثل خواطر إنسانٍ عاش سنواتٍ من أنضر أيام العمر بين ديار الملايو التي فرضت نفسها على التاريخ قديمِه وحديثِه بكل ما تحوي الكلمةُ من معاني. وقد زرتها لأبقى فيها عامين أو أكثر قليلاً فامتدت بفضل جمالها وسهولها ووديانها وغاباتها الكثيفة إلى ثلاثةَ عشرَ عاماً من الاندهاش والسفر بين غرائب الطبيعة وجمالياتها التي نبعت من كل الزوايا وتعانقت مع الخيال في كل الأوقات.

تصفحت كتاب الطبيعة في بلاد الملايو فتمنيتُ أن يكون العمر كله ترحالاً بين هذه الربوع اليانعات وأن يطول السَمَرُ إلى ما لا نهاية. وغرقت بين أمواجِ بِساطٍ أخضر فاضَ من سِحرِ الجمال حتى تدلى كالثمار اليانعات التي غذتها أفانينُ الطبيعة برُوائِها العذبِ الذي أعاننا على التآلف مع هذا الواقع البديع. ونمت بيننا أواصرُ للمحبةِ والتآلفِ والتعارفِ نمت مع الأيام.

كان المُنَى أن يظل العمر سرمدياً بين هذه الأكاليل من الورود وهذه الغصون اليانعة والبساطِ المخملي من سندس الجنة الإلهي الذي نَمَا على الأرض قبل يوم الميعاد. وكان الزاد في مسيرة التفاعل مع سحر الملايو هو التسبيح بحمد الإله الذي خلق كل هذا الجمال.

وتصفحتُ أسفارَ الحقيقة حرفاً حرفاً حتى استوعبتُها بإحساس النقاء والصدق الذي يقتضيه مقام التأمل في سحر هذا الوجود. ولعل الباحث عن المجهول في أرض الملايو كالباحث عن إبرةٍ

في كومةٍ من القش قبل هطولِ الخريف. الكثير من المعطيات تدعو للتأمل والغوص في الأعماق حتى يخرج الإنسان بما يريد. ولغة التخاطب تترنح أحياناً بين القصي والقريب حتى تبدو وكأنها لا تقوَى على إشباعِ نَهَمِ التعرف على ما حولنا مما نُريد وما لا نُريد. ورغم أن السفرَ قطعةٌ من العذاب إلا أنَّ الأمل في حصاد اللآلئ والدرر يذلل كل المستحيل ويُجَمِلُ صعاب التواصل، ويغري بموالاةِ المسير الذي كان أشبه بالمغامرة أملاً في الإياب بالصيد الثمين. ولذلك عندما بدأتُ خوض هذا المعترك لم يكن في خاطري غير سبر أغوار الحقيقة بكل تفاصيلها. وما فكرتُ في العودة منها إلا ظافراً ممتلئ السلال.

لم تَزَلْ في خاطري عشراتُ الأشياء التي رأيتها وعشرات الغرائب التي عايشتها مع البسطاء الذين فرضت عليهم المقادير أن يعيشوا بمنأى عن التكنولوجيا التي فاضت بها مدن ماليزيا وافتقرت إليها غاباتُها الاستوائية البِكر. ذلك لأنهم ارتضوا حياةَ الأحراش بكامل إرادتهم ورِضا أنفسهم وطيب خاطرهم، لا لشيء إلا لأنهم عشقوا الطبيعة حتى الثمالة وتآلفوا معها حق التآلف فأعطتهم ما أرادوا. وسعدتُ أيما سعدٍ وأنا أمسك بالقلم وأسطر ما عايشته طوال تلك الأيام علَّ وعسى أن أسهم ولو بالنذر اليسير في توصيف الحقيقة لمن لم يحالفهم الحظ بخوض غمار مثل هذه الرحلات إلى عالمٍ اختلفت طبيعته وطبيعة أهله وأرضه وجباله عن كل بقاع الدنيا.

وفي الحقيقة فإنَّ حياة أهل الغابات في ماليزيا لا تشبه حياة أي بشرٍ من أهل المدن في أي بُقعةٍ من بقاع العالم، وذلك لأنَّ أولئك النفر من الناس قطنوا منذ قرونٍ سحيقة بين هذه الأحراش، ولم يختلطوا في كثيرٍ أو قليل مع أهل الحضر. ولعل خيرات الطبيعة العديدة والمياه المتدفقة على مدار العام والثروات المتناثرة في كل

مكان من ثمارٍ وفواكه ونباتات وأسماك وحيوانات برية بكل الأحجام الصغيرة والكبيرة مما يُؤكل وما لا يؤكل قد أغنتهم عن مد أياديهم للغير. وهذا هو السبب في أن المال نفسه لم يعد ذا بال لأهل الغابة لأنهم قلما يشترون شيئاً من الأسواق التي لا يدخلونها إلا لماماً ولا يحبونها على الإطلاق. وحتى إذا دخلوها لا يقفون إلا أمام بائع السجائر أو بعضٍ من الأشياء التافهة مثل كُرات التاكرو التي يحبون لعبها كثيراً.

وسط هذا العالم المجهول كانت أيام التنقل بين الغابات مليئةً بالرغبة في استكشاف كل شيء، وكانت غنيةً بما يجب تسطيره لمقبل الأيام حتى تصبح ذكرياتٍ تحملها الأيام إلى من لم تُتَحْ له مثلُ هذه الفرص التي لا أخالُ أنَّ إتاحتَها سَتكونُ ميسورةً حتى للمؤلفِ ذاتِه، ولذلك آليتُ على نفسي أن أضعها بين يدي القراء، علها تضيف بُعداً من الخيال والتأمل وتعيشُ في وجدانهم كما عاشت في سِجِلِ الذكريات.

الفصل الأول

❄❄❄❄❄

رحلة المجهول

الفصل الأول

رحلة المجهول

❄❄❄❄❄

في ليلةٍ من ليالي صيف الملايو كتب لي القدر أن أخرج من ضوضاء العاصمة الماليزية كوالا لمبور وأتوجه صوب الأحراش. وكانت القصة قد بدأت عندما حضر أحد طلابي بالجامعة التي تقع في قلب المدينة إلى قاعة الدرس متأخراً في ذلك الصباح، حيث تعودنا أن ندخل قاعات الدراسة في الساعة الثامنة صباحاً وهو وقتٌ مبكرٌ جداً في بلاد الملايو التي تُشرقُ الشمس فيها بعد الساعة السابعة صباحاً. مما جعلنا نخرج من بيوتنا كل يومٍ في ظلامٍ دامس بعد صلاة الفجر مباشرة لنتوجه صوب مقر العمل.

دخل عليَّ ذلك الطالب البريطاني واسمه موسى نانينا Musa Naneena متأخراً نصف ساعة كاملة بعد بدء المحاضرة، وهي بكل المقاييس ليست زمناً قصيراً على لحاق الدرس ولا تتفق مع قوانين الجامعة التي تدقق غاية التدقيق في مسألة زمن دخول وخروج الأساتذة والطلاب على السواء. وفكرتُ مباشرةً في منعه من الدخول وتوبيخه على ذلك التأخر الذي كرره عدة مرات، إلا أنه بادرني قبل أن أتحدث بقوله:

«معذرةً يا أستاذ إنني أعلم أنني قد تأخرت ولكن ثِق أنَّ لتأخري هذا أسباباً في غاية الوجاهة، وأنا واثقٌ تماماً أنك ستُقدرُ ما أقول لك لأنَّ الأمر في غاية الأهمية وأرجو أن تسمح

لي بشرحه لك كاملاً بعد نهاية هذه المحاضرة». وفجأةً اعتراني إحساسٌ بأن أسمح له بالدخول ما دام في الأمر ما يستدعي الحديث والإقناع رغم أني كنت على وشك إخراجه من الغرفة حتى يكون عبرةً لغيره ممن قد تسول لهم أنفسهم بالتهاون في مواعيد الحضور. والشيء العجيب أن الطلاب في بلاد الملايو لا يكذبون أبداً على الأستاذ مهما كانت النتيجة التي يتوقعونها منه. فإذا نام أحدهم يقول للمعلم كنتُ نائماً، ولو كان مساهراً في حفلٍ أو أي مكان يحكي عنه بكل الصدق، وحتى لو غابَ لأنه كارهٌ للدرس لا يتوانى أن يقول ذلك للأستاذ دون أي مواربة أو تدليسٍ أو نفاق. ولذلك شعرتُ بأن هناك أمراً يستحق التعرف عليه وسَمحتُ لموسى بالدخول على أمل أن أعرف منه أسباب هذا التأخر التي وعد بسردها بعد نهاية المحاضرة.

انتهى الزمن المحدد للدرس وخرج جميع الطلاب إلا موسى الذي جلس أمامي شاكراً سماحي له بالدخول وقال لي: « **كنتُ مشغولاً يا أستاذ بالحوار مع ملكة ولاية كلنتان الملكة تنكو أنيس** Tengko Anis **لأننا نرتب الآن للجولة القادمة لبرنامجنا الذي نقيمه في العطلات وسط الأحراش مع قبائل الأورانج أصلي التي تعيش في هذه الغابات. ولما كان البرنامج يحتاج للكثير من التكتم والدعم المادي الكبير والمساعدات الفنية الهائلة فقد كنتُ مشغولاً بالاتصال بقصر السلطان في ولاية كلنتان** Kelentan، **والحمد لله ظفرنا في نهاية المطاف بالدعم الذي نريده من الملكة، وقد وعدتنا بأن تقدم لنا كل ما نحتاج إليه. بل إنها وافقت على أن تزورنا في الغابة هذه المرة وتمكث**

معنا وقتاً مقدراً تقديراً للجهود التي نبذلها في هذا المضمار. وقد قررنا مبدئياً أن يكون تحركنا مع جميع الطلاب في بداية العطلة الصيفية القادمة أي بعد شهر من الآن، وذلك هو سبب تأخري».

قال موسى هذا الكلام وسكت، ظاناً أنه قد أقنعني تماماً، ولكنني أدهشته بأنني لم أسمع بهذا البرنامج في حياتي، وأنني لا أعرف شيئاً مما يقول فكيف يطمع في تقدير موقفه واقتناعي بما يفعل؟ وقبل أن تزول دهشته بادرته بسؤالي:

«**أنتَ يا موسى تتحدث عن أمرٍ لم أسمع به بل إنني أجهل تماماً هذا الأمر، ولكي تقنعني بتقدير موقفك والسماح لك بمواصلته فإنني أريد أن أعرف طبيعة هذا البرنامج الذي تتحدث عنه وما علاقته بالجامعة؟ ولماذا تتأخر أنت بالتحديد دون بقية الطلبة؟ ومن الذي كلفك أو سمح لك به؟ ومن هم المشاركون معك من الطلاب؟ ولماذا تنخرط أنت دون سواك فيه مضحياً بكثيرٍ من وقت تحصيلك الدراسي؟**»

قال موسى: « **هذه قصةٌ طويلة يا أستاذ، وسأحكيها لك بكل تفاصيلها في وقتها، ولكنني الآن أطمعُ في أن تقدم لي خدمةً لن أنساها لك إلى الأبد، وأنا متأكد أنها ستكون لك تجربةً فريدةً ستتذكرها على مرِّ الأيام والسنين إن لم تكن هي أفضل ما ستخرج به من هذه البلاد».**

ضحكتُ من عباراته الواثقة والمقنعة بعد أن انتابني شعورٌ بالاستغراب من أسلوب هذا الطالب الذي حيرني حقيقةً بما يقول. ولكني كتمتُ ذلك الإحساس في نفسي وقلتُ له: «**سل**

ما تريد وستجدني معك إذا كان حديثك مقنعاً». وقال لي على الفور: « **أنا أريدك يا أستاذ أن تكون مشرفاً على هذا البرنامج، وأن تسافر معنا إلى الغابة لتكون شريكاً فيه، وسترى بعينيك أهمية هذا البرنامج وصدق ما أقول فضلاً عن أنك ستستمتع بعجائب هذا العالم المجهول الذي لا يعرفه حتى أبناء ماليزيا** ». قلتُ له: « **ولماذا تريدني أنا بالذات للإشراف عليه هل هي نوع من الرشوة حتى لا أعاتبك على تأخرك في المستقبل؟»**

ضحك موسى كثيراً وقال لي: «**والله يا أستاذ أنا اخترتك بالاسم منذ أن أمرتني إدارة الجامعة باختيار أستاذ ليشرف على هذا البرنامج. وقد أعطيتهم اسمك منذ الوهلة الأولى فطلبوا مني استشارتك أولاً للموافقة ثم يصدرون لك خطاب التعيين، ويمكنك أن تسألهم الآن فهم بانتظارك وقد كتبوا لك هذا الخطاب».**

وبالفعل أخرج لي موسى خطاباً معنوناً باسمي من إدارة الجامعة يشير إلى هذا الموضوع، فشعرت بأن الأمر جد ويستحق الاهتمام، خصوصاً عندما أطلعني موسى على أوراق الإدارة وأختام إدارة الأنشطة الثقافية بالجامعة وأطلعني على كل المكاتبات مع قصر السلطان ووزارة الداخلية الماليزية وبعض السفارات الإسلامية.

وعلى الفور قلتُ له: «**يا موسى أنا موافق مبدئياً لأنى بصراحة شغوفٌ بزيارة غابات الملايو التي لم أتشرف برؤيتها طوال الأعوام التي مكثتها في كوالا لمبور. حيث ظللنا منهمكين**

في العمل الأكاديمي الذي سرق منا كل أوقاتنا وحرمنا من التعرف على مثل هذه الأماكن المهمة. ثم إن هذا البرنامج الذي أراه أمامي يستحق الانخراط فيه بل الاجتهاد من أجله، ولا شك أنه سيشبع فضولي باستكشاف المجهول، ولكن دعني أقف على تفاصيل الأهداف والدوافع التي حملتك أنتَ من البداية لتحمل كل هذا العمل الشاق دون بقية طلبة الجامعة».

فقال لي موسى: «**إنك ستندهش يا أستاذ عندما تعلم أنني في الأصل قسيس ومبشر مسيحي وقد بنيت العديد من الكنائس وسط الأحراش ولكنني تحولتُ مئةً وثمانين درجة وصرتُ مسلماً وقررتُ أن أحول كل هذه الكنائس التي بنيتها بنفسي إلى مساجد**».

ووسط دهشتي لما يقول بحكم صغر سنه انتابتني كثير من التساؤلات التي تزاحمت على لساني بين الشك واليقين ولكن قطع حبل حديثنا الزميل البروفيسور مالك بابكر بدري الذي يعمل معنا أستاذاً بنفس الجامعة وهو يعرف موسى معرفةً جيدة، فسلم علينا وشاغل موسى ببعض الكلمات ثم التفتَ إليَّ قائلاً: «**أنا أبحث عنك كثيراً لأن مدير الجامعة يريد مقابلتك لأمر ضروري ومهم كنا نتحدث فيه أنا وهو عنك، فأرجو أن تذهب إليه الآن وهو بانتظارك**».

هنا قطع موسى حديثه وقال لي: «**فليكن لنا لقاء يا دكتور وسأحكي لك تفاصيل ستدهشك كثيراً. وأنا أتمنى أن يكون حديثنا عنها داخل الغابة نفسها وليس هنا في**

كوالالمبور». ضحكتُ وقلت له: «**أنا موافق يا موسى، وستجدني معك بعد أن تنقل موافقتي للإدارة ولمكتب شؤون الطلاب وسنرى ما ذا يحدث**».

فارقتُ موسى وعقلي مشغولٌ بما قال. وكنتُ أتصور أن استدعاء المدير لي يتعلق بهذا الأمر بعد أن اطلعتُ على إخطار الجامعة لي بالإشراف عليه، ولكني وجدتُ أمراً مختلفاً. كان المدير هو الدكتور (**عبد الحميد أحمد أبو سليمان**) الذي عمل مديراً للجامعة الإسلامية العالمية خلفاً للدكتور الراحل محمد عبد الرؤوف.

وأبو سليمان سعودي الجنسية، وهو يحمل أرفع الألقاب الماليزية لقب (**داتو**) الذي منحه إياه الملك. وهو من المفكرين السعوديين الذين اتصفوا على مر السنوات بالجرأة والدهاء والتجرد في مجال العمل الإداري. وقد ظل طوال سنواته التي قضاها مديراً لهذه الجامعة مثالاً للرجل نافذ البصيرة والإداري المقتدر الناجح في التخطيط والمثابرة على مستقبل الجامعة.

وأبو سليمان رجلٌ زاهدٌ في المال الذي خصص له كمرتب طوال سنوات عمله في إدارة الجامعة حيث أنشأ صندوقاً خاصاً بهذا المال ووضع له إدارة خاصة وسماه صندوق مال المدير The Rector's Fund وكان كل المرتب يذهب لهذا الصندوق الذي أوقفه بأكمله للإنفاق على الطلبة الفقراء من دول أفريقيا وآسيا. وقد رشحنا له كثيراً من طلابنا الذين قُبلوا على نفقته من أبناء السودان والصومال وجيبوتي وغيرها ممن يستحقون المساعدة. وقد ازدهرت الجامعة في زمانه أيما ازدهار حتى

أصبحت مرتعاً لفطاحل علماء العالم قاطبةً الذين استقطبهم واحداً تلو الآخر للعمل فيها أو على أسوأ الفروض ليكونوا أساتذةً زائرين. حتى أننا استمتعنا بزمالة وصحبة شخصياتٍ ما كنا نحلم بها مثل الشيخ الدكتور محمد الغزالي، والشيخ العالم أحمد ديدات، والعالم الكبير روجيه غارودي، والشيخ الدكتور عبد الوهاب الزنداني، والشيخ العالم الجليل أحمد القبيسي، والدكتور خروفة، والعالم البروفيسور مالك بابكر بدري، والبروفيسور أحمد إبراهيم أبو سن، والأستاذ البروفيسور جمال الدين البرزنجي، الأستاذ الدكتور نزار العاني وعشراتٍ وعشراتٍ غيرهم.

دخلتُ على الدكتور عبد الحميد أبو سليمان فوجدت الأمر مختلفاً تماماً مما توقعته حيث كان يطلبني للتحدث معي عن رغبته في نقلي لأعمل معه بمكتبه الخاص في إدارة الجامعة. ووسط اندهاشي لما يقول شكرته ومكثت معه طويلاً نتجاذب أطراف الحديث، حيث سألني عن الكثير وحكيت له عن الكثير من تجاربي الإعلامية ومؤلفاتي وتعلمي للغة الإنجليزية وبعض ما تفضل بذكره من أشياء قالها له بروفيسور مالك بدري.

وشعرتُ بالسعادة الغامرة لما سمعته منه رغم أنني لم أفكر في يوم من الأيام بالعمل الإداري خصوصاً إذا كان مع المديرين والرؤساء المباشرين بالمؤسسات. ورغم أن الكثيرين يطمعون في مثل هذه المناصب إلا أنني أسهبتُ في اعتذاري عنها بحكم ميولي للتحرر في مجال العمل بحكم أنني بدأت حياتي العملية مذيعاً وصحفياً. والمذيع والصحفي يتحركان كالنحلة دون رقيب أو

عتيد. وقد حرصت على هذا التحرر طوال حياتي منذ أن عملت بالإذاعة والتلفزيون مروراً بالصحف والجامعات. حتى أنني عندما كلفت برئاسة القسم بالجامعة عند غياب رئيسه الأستاذ مصطفى يوسف لجأتُ إلى كل الأساليب والسبل لأنهي تلك المسئولية الجسيمة حتى تكللت جهودي بالنجاح والفكاك من إسارها. وظلَّ ذلك هو دأبي على مر السنوات حتى عندما رأى البروفيسور مالك بدري وسعادة مدير الجامعة إسناد ذلك المنصب إلى شخصي الضعيف.

مرَّت الأيام، وسلمتني إدارة شئون الطلاب بالجامعة الإسلامية العالمية بكوالا لمبور خطاباً بتعييني مشرفاً على برنامج موسى الذي ترعاه الجامعة وتموله مع بعض الجهات والمؤسسات الخيرية داخل وخارج ماليزيا. وسعدتُ كل السعادة لهذا التكليف الذي لا يشبه الأعمال الإدارية التي حكيتُ عنها. وعقدنا عدة اجتماعات مع الطلاب المشاركين في البرنامج الذين تم اختيارهم بعنايةٍ فائقة من بين الطلبة والطالبات، ثم حزمنا أمتعتنا وتوجهنا نحو غابات الملايو.

كنتُ قُبيلَ الرحيل قد تعرفتُ من موسى على كل تفاصيل الرحلة عَدا سؤالٍ واحدٍ أرجأ إجابته الكاملة عليه إلى ما بعد وصولنا إلى الغابة. ولعله لم يكن يدري أنَّ هذا السؤال هو الوحيد الذي ظلَّ يشغل بالي على الدوام وهو: **[ما هي الخلفياتُ التي جعلته يقوم بهذا المشروع المُضني؟]** ووعدني أن يشرح لي كل شيء بالتفصيل عندما نصل إلى الأحراش.

رحلة إلى المجهول

خرجنا في نهارٍ صحوٍ، عليلِ النسمات، تزفه زَخَّاتُ المطر من مدينة (كوالالمبور) Kuala Lumpur العاصمة الماليزية وتوجهنا نحو الشمال. كنا جماعةً تنوعت سحناتها وألوانها، جاءت من مختلف بقاع الدنيا من آسيا وأفريقيا وأوربا وأستراليا. ورغم تباين السحنات والملامح فقد تلاقت أفكارنا ومرامينا وغاياتنا والنوايا.

امتطينا سيارةً أنيقةً من طراز الباجيرو Bajero تقودها فتاةٌ لم يتجاوز عمرها العشرين تُسمى مارهيني Marheni. وكانت تنهب الأرض نهباً على شارع الأسفلت الطويل الذي التزمناه من قلب مدينة كوالا لمبور ولم نفارقه إلا على مشارف الغابة التي أخذت منا أكثر من نصف يومٍ بأكمله من السفر المتواصل. ما كنا نتوقف إلا للتزود بالماء والطعام عندما نتعب من طول الرحلة.

كان الشارع رغم طوله قد جملته يد الصنعة الماليزية بكل ما يريح المسافر. وقد حفَّته الأشجارُ والأزاهيرُ الأنيقة، ومن حوله مراكز الخدمات التي لم تفارقنا لحظةً. وفي المساء أضيئتْ جنباتُه باللمبات الساطعة التي أراحت عيون المسافرين رغماً عن أرتالِ الظلامِ الكثيف.

ورغم أنَّ هذا الشارع يمر بالكثير من القرى والمدن الكبرى والولايات إلا أنَّ الاستراحات التي بُنيت حوله استعصى علينا عَدُّها لكثرتها وبروزها الواضح بين الحين والآخر، حيث كنا نرى استراحةً على اليمين أو الشمال بعد كل ساعةٍ تقريباً.

وهي اســتراحاتٌ مثلها مثل اللكوندات أو الفنادق في نظافتها وأناقتها وتجهيزها بكل ما يحتاج إليه المســـافر من مأكل ومشرب ووسائل للراحة بأشكالها المختلفة. والشارع على طوله مزود بكابينات التلفونات المتناثرة في الخلاء الواسع مما جعلها تبدو وكأنها مدينةٌ واحدة تقاسمتها الفيافي والبيادر التي نأت عن العاصمة مئاتِ الأميال.

أرخى ليلُ الملايو سدوله وسط تلالٍ راسية في قلب طبيعةٍ أخاذةٍ ومثيرة. وفجأةً بهرتنا أضـــواء النيون القوية من بعيد لشدة لمعانها وكانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليلْ. أخبرنا العارفون بأننا الآن داخلون على مدينة (**كوتا بارو**) Kota Baru عاصـــمة ولاية (**كلنتان**) Kelantan. وكلمة كوتا بارو باللغة الملايوية تعني المدينة الجديدة. وعلى الفور قررنا جميعاً أن نقضي ما تبقى من سويعات الليل الذي مضى معظمه في هذه المدينة لنواصل سفرنا في صبيحة الغد لأنَّ الإعياء كان قد أخذ منا كلَّ مأخذ وأبت أوصـــالنا أن تتحمل ما تبقى من الرحيل.

توقفت ســـيارة الباجيرو أمام أحد المنازل في أحد أحياء كوتا بارو. ولم أكن أدري لِمَنْ هذا البيت، حتى خرج صاحبه ومعه ثلاثةٌ من الأطفالِ الوسيمين الذين سلموا علينا بحرارة طالبين منا النزول والتفضل إلى الداخل. وعلمتُ حينها أن هذا هو منزل إحدى الطالبات اللائي كُنَّ معنا داخل ســـــيارة الباجيرو وهي تدرس بكلية القانون في الجامعة. وأحســـستُ بحرج شديد عندما لاحظتُ عددنا الكبير وأننا سننزل ضيوفاً على هذه الأســرة الصــغيرة في أواخر هذا الليل البهيم. ولكنْ

تبدد خوفي وانزعاجي عندما أخبرني موســى أن هذا التوقف والمبيت في هذا المنزل أمرٌ متفق عليه مع الطالبة وأسرتها سلفاً وهم جاهزون لاســتقبالنا الآن، لذلك لم ينم أي واحدٍ منهم وظلوا في انتظارنا. اطمأن قلبي ونزلنا جميعاً لنجد العشــاء جاهزاً وأكواب العصــير قد وضــعت على الترابيز وفُرشــتْ الوسائد على الأبسطة الناعمة لزوم النوم.

تعشينا على عجل واستسلم كلٌ منا لنومٍ عميق لم نفق منه إلا على صــوت المنادي الذي أخبرنا أن الصــباح قد طلع والإفطار جاهز، وأنَّ علينا الاستعداد للرحيل. صحونا وصلينا وتناولنا الإفطار الذي يكون دائماً في الصباح الباكر جداً لدى الماليزيين. وأشرقت شمس الصباح الدافئة، وسرى في أوصالنا أملٌ جديدٌ في الرحيل، وحزمنا متاعنا من جديد وبدأنا السفر إلى قلب الأحراش.

كانت قد تبقت ساعتان حتى نصل إلى هدفنا المنشود وهو على بُعد خمسين ميلاً بالضبط من مدينة صغيرة تُسمى (**جيلي**) Jaily. وقد قررنا أن نذهب إلى جيلي أولاً لإخطار الســـلطات المحلية وأخذ الإذن الرسمي بالتحرك إلى داخل الغابة. ومدينة جيلي رغماً عن صغرها تُعتبر أهم المدن بالنسبة لسكان الغابة حيث إنها تحتضن المكتب الرئيسي المسئول عن تنظيم شئون (**الأورانج أصلي**) Orang Asli في كل الولاية.

وصلنا إلى جيلي ووجدنا ثلاثةً من طلابنا قد سبقونا إليها وبدأوا في استخراج التصاريح وعمل الاجراءات الأخرى، فحملنا الأوراق وتوجهنا نحو الغابة. بعد ميلين فقط من

خروجنا من مدينة جيلي تركنا شارع الأسفلت الأنيق وبدأنا في الصراع مع الممرات الضيقة والوعرة في مدخل الغابة. وظلت سيارة الباجيرو تصعد وتهبط فوق أرض جبلية ملأت صخورها وأحجارها المتناثرة جنبات الشارع المتعرج الذي لا يضيق إلا ليضيق مرةً أخرى وسط التلال.

ولم يشفع لنا ارتواؤنا من جمال شارع الأسفلت الواسع الأنيق الذي تركناه إلى غير رجعة. ولم تشف غليلنا وسط هذه المطبات قَسماتُ الحضارة وأناقة المسير التي رأيناها على طول الطريق من العاصمة كوالا لمبور إلى ولاية كلانتان Kelantan عندما نزلنا من الشارع الرئيسي ودخلنا عالم الأحراش القاسي. صرنا الآن نتلوَّى كالثعابين مع الأزقة الضيقة الوعرة المسالك التي امتدت طويلاً وسط الجبال الشاهقة.

ولم تزل قائدتنا الصغيرة تصارع هذه الطبيعة الغلابة وكأنها قد تمرست طوال سنوات عمرها القليلة على خوض مثل هاتيك المصاعب. وزاد صوت الوحوش والطيور والجداول المتدفقة من قمم الجبال من خصوصية وغرابة المشهد الذي مثَلَ أمامَنا وكأنه فيلم سينمائيٌ أو شريطٌ من نسجِ الخيالْ البديع لمُخرجٍ فنان.

شعرنا ونحن على صهوة تلك السيارة بأنها تتهادى عبر الممرات كأنها أفعى تتربص بفريستها قبل الهروب. وكانت عجلاتها تئن على الصخور أنين من يخشى الهلاك وسط هذا الواقع العنيد. وشعرنا بأن هذه الرحلةُ أطول كثيراً مما

تصورنا، حيث امتدت في مجملها لما يزيدُ عن أربعَ عشرةَ ساعةً كاملة من مدينة كوالا لمبور حتى هذا المكان القصي. ورغم أننا قد توقفنا مراراً في الطريق لنلتهم الطعام أو نعبّ الماءَ الذي حملناهُ معنا إلا أن أوصالنا كادت تتمزق من طول المسير ورهق الطريق.

ورغم أننا قد ارتوينا من كثرة ما شربنا إلا أنَّ فضولنا لم يرتوِ. وبدَا كأننا نسعى لاكتشاف المستحيل في زمانٍ لا يعرفُ المستحيلْ. ظلَّ حاجز الخوف الذي اعترانا مسيطراً علينا طوال ساعات اقترابنا من المكان. ولم يتبدد إلا عندما تبدد حاجز الصمت الذي خيم على الزوايا بضوضائنا نَحْنُ عند الوصول إلى مكان المُعسكر.

نظرنا إلى ساعاتنا فوجدناها ساعتين بالضبط هي المدة من تحركنا إلى أن وصلنا إلى هذا المكان الذي ظللنا نحلم به ونخطط للوصول إليه قبل أسابيع طويلة. كانت ساعتان من الزمان حسبناها دقيقةً بدقيقة وثانيةً بثانية لأننا على موعدٍ مع المجهول الذي لا ندري كيف هو ولا كيفَ نتعاملُ معه.

توقفت عجلاتُ السيارة تماماً لنفاجأ بأنَّ البص الذي يحمل بقية الطلبة والطالبات قد وقف هو الآخر من خلفنا وكأنه كان يتابعنا وقع الحافر بالحافر رغم أننا لم نَرَهُ طوالَ الطريق. ونزل الجميع حاملين معهم أمتعتهم الصغيرة التي حملوا فيها ما يحتاجون إليه طوال أيام البقاء في هذا المكان. كان اليوم أربعاء، وكان مشحوناً بالشد والجذب. حيث كانت تلك الغابة الاستوائية الكثيفة في أقصى الشمال الماليزي على

موعد مع ضوضاءٍ من نوعٍ جديد كسر حاجز السكون المفروض عليها طوال سنوات عمرها الطويل. ضوضاء تختلف عمَّا يثيره فحيح الأفاعي، وهمهمات الأفيال الضخمة، وصلصلاتُ النسانيس التي تملأ أرجاء المكان. وتحوَّل الهدوء الشديد والصمت القاتل إلى حياةٍ وحيويةٍ دبت في أوصال المكان حتى أدهشت عيون القاطنين الذين تقاطروا في صمتٍ شديد يرقبون ما تخبؤه أيادي القدر لهم خلال السويعات القادمات.

نعم لقد وصلنا إلى بلاد الأورانج أصلي التي سمعنا عنها في الكتب القديمة، وحدثتنا عنها بعض الروايات القليلة لمن كتبوا عن القبائل النادرة والقبائل المنقرضة في خريطة الأرض. ولم يكن في أذهان الكثيرين منا تصورٌ لشكل الحياة وسط هذه الأحراش. ولذلك لم نتمكن من رسم صورة لكيفية البقاء وسط هذه الوحوش والنأي عن حياة الحضر التي ألفناها طوال السنين.

كان محدثي طوال الطريق هو صديقي العزيز الطالب (**حميزار**) Hamizar الذي ربطت بيني وبينه علاقاتٌ عميقة توطدت إلى مستوى الأسر وظلت تتوهج طوال السنوات. ولم تكن علاقتنا علاقة أستاذٍ بتلميذه وإنما علاقة أخٍ بأخيه وصديقٍ بصديقه حتى بعد أن أصبح موظفاً بإحدى الشركات.

كان حميزار يحكي لي طوال الطريق عن غرائب الحياة في غابات الملايو، وعن غرابة أطوار البشر الذين سنتعامل معهم في هذه الأحراش. وعلى إيقاع حديثه ذلك تجوَل بصري منذُ

لحظة الوصول حول كل شيء في هذا المكان الكثيف الأشجار والذي لا يقطع سكونه إلا خرير الجداول وشقشقة العصافير وأصوات حيوانات غير أليفة تظهر بين الفينة والأخرى. وسرح الخيالُ بعيداً في عظمة هذا الكون الفسيح الذي لا يمكن أن تصوره الكلمات.

عند هبوطنا من السيارة شعرنا بأنَّ أقدامنا قد تسمرت من طول الإرهاق. ولم يقوَ أيٌ منا على المسير لبضع لحظات لأن الإعياءُ قد أخذ منا مأخذه. إلا أنَّ أحاسيسنا قد طربت من الوهلة الأولى لشكل الغابة الذي ظل يدعونا للتأمل في كل ما حولنا من الأحراش التي تملأ أرجاء المكان. كان الفضول قد تملكني منذ الوهلة الأولى وأنا أهبط على هذه الأرض العذراء التي تسربلت بالحسنِ من كل الزوايا.

وشعرت كأني قد هبطتُ من السماء إلى جزيرة الأحلام. فالكلُ من حولي يدعو للدهشة والاستغراب. وطافت بخاطري عشرات الأسئلة التي تحتاج إلى إجاباتٍ شافية ممن يعرفون أسرار الحياة في هذه البقاع النائية ليس لأمثالنا من الغرباء فقط، وإنما حتى لكثيرٍ من أهل ماليزيا أنفسهم الذين تقوقعوا بالعواصم ولم يتشرفوا بخوض مثل هذه المغامرات التي تحتاج إلى كثير من الحذر والترقب.

قرية وسط الأدغال

سمقت الأشجارُ حتى غابت نهاياتها في عنان السماء، وهي لا تشبه الأشجار في أي مكانٍ على وجه الأرض. حيثُ

أكدت كل الدراسات العلمية أن أشجار الغابات في هذا الجزء من الكرة الأرضية قد تميزت بطولٍ متفرد بين أشجار البلاد الأخرى. والمناخ الإستوائي هو المسيطر على أرض الملايو طولاً وعرضاً. والأمطار الغزيرة تستمر طوال العام حتى أصبحت جميعُ الفصول فصلاً واحداً يمتد طوال شهور السنة. وهو فصلٌ ممطر ورطب، تعلو فيه حرارة الشمس بالنهار ويشتد فيه البرد في الليل. والخضرة التي حجبت ضياء الشمس عنا ملأت أرجاء المكان بمزيجٍ من أريج الزهور ورائحة المياه ولون الأرجوان. وبدت وسط هذه التلال المشرئبة إلى السماء قريةٌ صغيرةٌ تناثرت أكواخها بين الجداول والجبال، فارتمى كُلُ بيتٍ تحت أحضان الظلال الوريفة.

وقبل أن أفيقَ من هول المفاجأة وجمال الطبيعة الخلاب في هذا المكان شدني أحد الحاضرين من كتفي قائلاً: «**مرحباً بك في غابات الملايو التي لم تسمع عنها إلا من خلال الكتب والأفلام**». قلتُ له: «**حقاً، ولذلك فإنني لا أعرف من أين أبدأ وإلى أين أنتهي**».

قال محدثي وهو أحد الطلبة المرافقين لنا ويُدعَى حازرول Hazrol إنَّ هذه القرية الصغيرة تُسمى (**سونقاي رُوال**) Sungai Rual، وكلمة سونقاي بلغة الملايو تعني النهر، أي هذه قرية نهر روال. وهذا النهر يجري في منحدراتٍ وعرة تبدأ من قمة جبلٍ شاهق بالقرب من مدينة جيلي ويعبر عشرات الأميال في قلب الغابة. ولذلك سُميت هذه القرية المصنوعة باسم هذا النهر.

إنني أسميها القرية المصنوعة لأنها بالفعل قد صُنعت قسراً ولم يكن لها وجودٌ على الخريطة قبل سنواتٍ قليلة. إنها نمطٌ فريدٌ من القرى التي رأيتها عبر ترحالي في كثيرٍ من بقاع العالم. فهي أصغر من أن تُسمى قرية، وبيوتها لا تشبه البيوت. حيثُ إنها ترقد بين ظلال الأشجار، وكل شيء حولها تكسو جوانبه السكينةُ والهدوء. وتناثرت أكواخها بين الجبال المتقاربة التي غطتها أغصان الشجر من جميع الجهات.

كان قد سبقنا إلى ذلك المكان بدقائق معدودة مجموعةٌ من طلبة (**الجامعة الإسلامية العالمية**) بماليزيا الذين استقلوا حافلةً ضخمة تابعة لقصر السلطان بولاية (**كلنتان**) الواقعة في أقصى شمال دولة ماليزيا والتي تلتصق بمملكة تايلاند في طرفها الجنوبي الذي يحوي أكثر الولايات التايلندية عراكاً وثورةً على مر السنين ولاية فطاني ذات الأغلبية المسلمة.

كانت تلك الحافلة قد بُعثت خصيصاً لنقل الطلاب المشاركين في هذا البرنامج من مقر الجامعة بكوالا لمبور التي تفصلها عن هذه الغابات أربعَ عشرةَ ساعةً كاملة. وصل الطلاب قبل دقائق من وصولنا، وكان كل واحدٍ منهمكاً في إنزال ما يليه من المتاع القليل الذي حمله معه، والتأم الشملُ لنبدأ برنامجنا الذي سألنا الله أن يُكلله بالنجاح. سكن الليلُ، وخيّم الصمتُ، فهدأت أوصالُ القرية الصغيرة على ضفة النهر إلا من حديثٍ يدور هنا وهناك بين صديقين لاذا بصمت القرية المهيب من ضوضاء المدينة التي سحقتها بهرجة النيون. ومن على البُعد سرى حديثٌ جادٌ حول برنامج العمل المكثف الذي

ينتظرنا عندما ينبلج الصباح. كان رئيس الجلسة هو موسى نانينا الذي تحدث عن مهمة كل فردٍ من أفراد المعسكر، وشرح لكل فردٍ دوره بالتفصيل والمسئوليات الملقاة على عاتقه. قال موسى الذي بدا وكأنه قد خَبِرَ حياة الأدغال فصار واحداً من خبرائها المتمرسين: «**إن المهمة التي تنتظركم ليست بالسهلة واعلموا أنَّ دخولنا في هؤلاء الناس ليس بالأمر اليسير. فكونوا صابرين مثابرين وواثقين، ستقابلون أناساً لم يألفوكم وهم أقرب إلى إنسان الغابة** Orangutan**. فقد ألفوا حياة الأدغال حتى تكسرت نصال المدنية على جلودهم السميكة، وإذا لم تكونوا قادرين على الصبر وخوض الصعاب فإننا حتماً سنرجع مثلما جئنا بخفي حُنين**».

كان موسى يتحدث وفي معيته تجربة سنواتٍ طوال صقلتها رحلته من النصرانية إلى الإسلام وزادته إدراكاً وصبراً خبرته في شؤون التعامل مع أولئك النفر من بني الإنسان الذين اتخذوا من الغابات مأوىً لهم. ولعله لذلك السبب كان شغوفاً بمثل هذه الرحلات ومولعاً بركوب المخاطر والصعاب. إنتبه أحد الطلبة الذين كانوا ينظفون المكان أثناء حديث موسى وقال: «**لقد نسينا في غمرة الاندهاش أن نُنزل صناديق المأكولات من السيارة**».

ونهض الجميع فوراً وأنزلوا صناديق المأكولات الضخمة وأدوات الطعام الكثيرة التي حملناها معنا ووضعوها في ركن من أركان المصلى الصغير الذي اتخذناه مسكناً لنا طوال أيام الرحلة. تعجبت في بادئ الأمر كيف يوجد في مثل هذه القرية النائية مُصلىً رغم أنّ سكانها ليسوا من المسلمين!؟

قال لي موسى: «**في واقع الأمر هذا واحدٌ من أسباب هذه الرحلة، وسأحكي لك كل شيء بالتفصيل عندما ترتاح أوصالنا من هذا التعب الشديد وبعد أن نرتبُ أمورنا، فاصبر حتى يحين الأوان**». أثناء ذلك الحديث بدأت الفتيات ينظفن مقرهن الخشبي الصغير الذي لم يكن سوى غرفتين صغيرتين تشبهان أكواخ الهنود الحمر في أفلام رعاة البقر. لا أواني ولا أثاثات، ولا وسائد، ولا أَسِرّة، ولا دثار، ولا مواقد تدفع زمهرير الليل من جسد الضيوف.

كل المنازل هنا عبارةٌ عن أكواخٍ خشبية صغيرة بُنيت على قاعدةٍ من الخشب السميك أقيمت على أعمدةٍ متينة ترتفع عن الأرض مسافة 75 سنتمتراً خوفاً من السيول التي تنحدر من قمم الجبال في معظم شهور السنة والفيضانات ومياه الأمطار الغزيرة والحشرات والحيوانات الضارية التي تمتلئ بها الغابة. وهناك على الجانب الشرقي من القرية يقبعُ كوخٌ صغير تميز عن بقية البيوت المجاورة بلونه الأبيض الزاهي وهيئته الجديدة.

وشخصتْ أنظارُ الطلاب نحوه عله يكون الملاذ الأفضل لقضاء هذه الليلة الفريدة أو الليالي القادمات. وأشار موسى إلى أنَّ ذلك الكوخ الذي جذب أنظارنا إليه هو منزل الأستاذ (**رملي بن أوانق**). والأستاذ رملي هو المعلم الوحيد في القرية. وقد جاء من قرية (**باسير إماس**) Pasir Emas التي يعني إسمها (**الرمال الذهبية**) بعد أن أقنعته مفوضية شئون الأورانج أصلي بأن يعمل في هذا المكان لمدة ثلاثة شهور فقط يعود بعدها إلى قريته. وسيُعطى مالاً وفيراً مقابل البقاء والصمود في هذه

الغابة الموحشة. وقد يأتي بعده معلمٌ آخر من مكانٍ آخر إذا سارت الأمور على ما يُرام ليواصل هذه الرسالة الصعبة علهم ينجحون في إقناع الأورانج أصلي بإحضار أطفالهم إلى سلك التعليم، ويالها من مهمةٍ عسيرة. كان الأستاذ رملي بن أوانج شاباً في السادسة والثلاثين من عمره. وهو لا يتكلم غير اللغة الملايوية بلهجة أهل كلنتان المميزة عن بقية لهجات الملايو. ولم يتزوج بعد، لذلك فقد وافق على البقاء في هذه القرية. ولما كان الأستاذ رملي محتاجاً لأي إنسان من المدينة يؤنس وحشته وسط هذه الأدغال فقد رحب على التو بإيواء عدد من الطلبة المشاركين في المعسكر داخل كوخه الصغير، على أن يبقى الآخرون داخل المصلى الصغير والفتياتُ في كوخٍ على الجانب الغربي من القرية على مرأي من وسط المعسكر.

اتفقنا على ذلك التقسيم، وفرش الأستاذ رملي منزله بالحصير المتوفر لديه وهو مصنوعٌ من رقائق القصب الناعم الذي ينمو كثيراً في بلاد الملايو. وأسعفناه بالمزيد مما لدينا من السجاجيد والحصائر حتى بدا كوخُه الصغير وكأنه خلية نحلٍ تعج بالطلبة من مختلف الأجناس.

سكن بقية الطلاب في كوخٍ قريب من منزل الأستاذ رملي كان قد بني أساساً ليكون استراحةً للزوار والضيوف الذين يعبرون القرية من وقتٍ لآخر من موظفى حكومة كلنتان أو وفود الطلبة التي تأتي من وقتٍ لآخر.

جلسنا جميعاً وكان عددنا خمسةً وثلاثين فرداً، بيننا تسعَ عشرة فتاةً وخمسةَ عشرَ شاباً جميعهم من طلبة الجامعة

الإســـلامية العالمية بماليزيا ومعلمٌ واحد هو المشـــرف على برنامج هذه الرحلة وهو شـخصـى الضـعيف، جلسـنا نتجاذب أطراف الحديث ونطرح كل ما لدينا من تسـاؤلاتٍ وتصـورات خصـوصـاً وأنها أول ليلة لنا في هذه الغابة. قال محدثي وكان أحد الطلاب المتمرســين على مثل هذه الرحلات وأحد ثلاثة ظلوا طوال الرحلة يسـهرون على راحة الآخرين قال لي: «**في الواقع إنّ هذه هي المرة الثالثة التي نجيء فيها إلى هذه الغابة ونسـكن في هذه الأكواخ التي بنتها الحكومة علّ وعسـى أن تسـاعد في اسـتقرار أفراد هذه القبيلة حتى يسـهل تقديم الخدمات لهم مسـتقبلاً إن اقتنعوا بالاسـتقرار وتركوا حياة التنقل من مكانٍ إلى مكان**».

ولعل هذه البيوت قد ظلت لفترات طويلة بدون سـكان لأن الناس الذين بُنيت من أجلهم لم يألفوها ولم يقبلوا التقوقع في مكان واحد لأنهم جُبلوا على الترحال شـأنهم شـأن كثيرٍ من القبائل الآسيوية والأفريقية. وأضاف المتحدث قائلاً: «**في بادىء الأمر عانينا ويلات التأقلم مع أفراد الأورانج أصلي بغابات كلانتان الملايوية، حيث كانوا ينظرون إلينا وكأننا هبطنا من السـماء ولم يجرؤ أحدٌ منهم على القرب منا أو الحديث معنا إلا بعد مجهودٍ مضنيٍ بذله جميع المشاركين في ذلك البرنامج**».

قلتُ له: «**وكيف تمَّ ذلك؟ وكيف اسـتطعتم إقناع هؤلاء الناس بالجلوس معكم؟ وبأي لغةٍ تحدثتم إليهم؟ بل من أين جاءوا وكيف يعيشون؟ وماذا يأكلون وكيف يتوالدون؟ بل لماذا لا ينخرطون في سلك حياة المدائن والحضر؟**» فأجاب

بقوله: «**صبراً يا أستاذ ستعرف كل شيء في الصباح وما دمتَ عضواً ومشرفاً على هذا البرنامج فسترى كل شيء بعينيك وليس مَنْ رأي كمن سمع، كما يمكنك بالطبع أن تأخذ المعلومات من أفواه صناعها الحقيقيين أليس كذلك؟ قلتُ له بلى وإنَّ غداً لناظره قريب**».

كان الكل يطرح في نفسه سؤالاً، كيف يعيش هؤلاء البشر في مثل هذه الظروف النائية عن كل سمات الحضارة؟ وكيف تسنى لهم أن يتركوا كل سمات الحياة المدنية في مدن ماليزيا ويعيشون وسط هذه الوحوش الضارية حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها؟ وكيف يمارسون حياتهم اليومية في بيئة خُلقت أساساً للوحوش الضارية وليست للإنسان؟ حقاً إنها أسئلةٌ تحتاج إلى إجابات. وبقينا نحسب الساعات والدقائق بانتظار أن نتعرف على هذه الدنيا الجديدة التي تضج بكل ما هو جديرٌ بالتسجيل والحفظ لأنَّ المجيء إليها ليس سهلاً والبقاء بين ظهراني أهلها ليس بالأمر الهين. وتوكلنا على الله ننتظر ما ينبئ عنه طلوعُ الفجر وأسلم الجميع أنفسهم للنوم العميق.

لم تكن تلك الليلة مثل كل الليالي. ورغم أنني قد كنتُ في غاية الإرهاق إلا أن نومي كان متقطعاً حيث لم أستسلم للنعاس كما تعودت في المدينة. ولعلَّ ما رأيته وما سمعته من الحكايا الكثيرة والمثيرة قد كان سبباً في قلة نومي في تلك الليلة. حيث كنت طوال الليل أفكر في حكايات الأشباح التي حكى لي عنها بعض الرفاق والتي تملأ أرجاء المكان. وأخبروني أيضاً أنَّ في هذه الغابات أشباحاً ومجموعةً لا

تحصى من الأرواح الشريرة التي لا يحلو لها البقاء إلا في قمم الجبال الشاهقة وبين أغصان الشجر. وبدت لي الأصواتُ التي تظهر بين الفينة والأخرى وكأنها بالفعل أصوات تلك الأشباح. وإلا فما الذي يكسر هذا الصمت في هذا الليل الرهيب؟

كنت أتحسسُ بطارية الطورش الصغيرة التي تنام تحت وسادتى وأتأكد في كل مرةٍ أنها تعمل، واستمر ذلك طوال الليل حتى يطمئن قلبي أنَّ الذي ينام بقربي ليس واحداً من تلك الأشباح المخيفة. وحمدت اللّٰه أنَّ منظم الرحلة قد أمرنا أن نحمل معنا هذه البطاريات الصغيرة ضمن متاعنا لأنها ستكون سلوتنا الوحيدة في تحركاتنا وسط ظلام الغابة. كما أدركتُ حكمته حين أمرنا أن نحمل معنا ملابس الشتاء الثقيلة لأنَّ الزمهرير الآن يكاد ينخر في العظامْ.

انتابني إحساسٌ جارف بأنَّ كل هذه الأشجار تتحرك بين أمواج الظلام. وكنت أنظر إلى بعض الزملاء من حولي يغطون في نومٍ عميق وقد التحفوا الثرى، فأعود أداعب النوم عله لا يهرب من عيوني. وشيئاً فشيئاً بدأ النعاس والإعياء يسري على جسدي الذي أنهكته عذاباتُ الرحيلِ المتواصلِ. وقبل أن تطرق الأحلام ذاكرتي صحوتُ فجأةً على صوت (**فافاندنج**) Fafanding ذلك الفتى الأفريقي الأسمر الذي كان ينادي في الجميع أن يقوموا لصلاة الفجر.

صحوتُ مذعوراً وكأنَّ الفجر قد سرق من عيني أحلامَ المنام. ووسط الظلام الدامس الذي لم تقطع حُلكته إلا أضواء

لمبات الطورش المحمولة على أيدي الطلاب من هنا وهناك توضأنا للصلاة. كان صوت فافاندنج قد شقَّ عباب الظلام بآياتٍ من الذكر الحكيم بين أدغالٍ لا أخال أنها قد صحت من قبل على صوت الأذان، فقد مزق أوصالَها فحيحُ الأفاعي وزئيرُ النمور.

كان جميلاً منظرُ الطلاب وهم يتوافدون نحو المصلى الصغير في ذلك البرد القارس رغم أرتال النعاس الذي بدا على عيونٍ لم تذق طعم المنام. خرجنا بعد أداء الصلاة وتركنا فافاندنج يتلو آيات الذكر الحكيم على ضوء شمعةٍ خافتة لم تكن تبينُ له رسم الحروف. وكانت الفتيات قد بدأن في إعداد الطعام رغم أنَّ النجوم لم تزل تغازل صفحة السماء الزرقاء. وبدد وهج نيران الفتيات ظلمة الليل رويداً رويداً حتى طلعت في الأفق شمس الصباح الدافئة بين أطياف الظلال.

كان الطلاب قد أوقدوا للفتيات النار من الحطب الذي جمعوه ليلة البارحة من أطراف القرية حيث يكثر حطب الحريق. ووضعوا لهنَّ القدور الضخمة التي ملئت بالأرز على النار. وما هي إلا دقائق معدودة حتى وُضعت أمامنا أطباق الطعام على عادة أهل الملايو الذين يتناولون إفطارهم دوماً في الصباح الباكر.

ووجبة الصباح كما هو مألوف في بلاد الملايو تتكون من الأرز وقطع البيض المسلوق وبعض السمك الصغير المسمى إيكان بيلِسٍ Ikan Bilis الذي يجفف ثم يُحمر على الزيت ببعض التوابل ثم تخلط كل هذه الأصناف داخل الطبق مع

بعض العجينة المصنوعة من البصل والزيت والملح والصلصة ثم تؤكل بالملعقة أو باليد وتُسمى ناسي لِمَّا Nasi Lemah. هذه الوجبة تعتبر أشهر الوجبات لدى أهل ماليزيا خصوصاً عند طعام الإفطار. ثم شربنا بعد ذلك أقداحاً صغيرةً من الشاي الساخن الذي يُطلق عليه إسم تِي أُو Teh O. وهم لا يضعون عليه سوى ملعقة صغيرة من السكر. بعد الإفطار كان الجميع قد انخرطوا في أداء المهام الموكلة إليهم.

كانَ البعضُ منهمكين في غسل الأواني، والبعض يجلبون الحطب لطهو الطعام، والبعض ينظفون أماكن السكن التي خلت من النائمين مع بزوغ الفجر. في حين بدأ البعض في تفريغ صناديق البسكويت والحلوى ووضعها في أكياس صغيرة يحتوي كل كيسٍ منها على بعض القطع التي تكفى لطفلٍ أو طفلين. طلعت الشمس دافئةً تبدد زمهرير الليل الذي سرى في أوصالنا حتى بدت أطرافنا كقطعٍ الجليد. وكانت الأكواخ تبدو حولنا في مزيجٍ من ضجيجٍ وسكون بددته صرخاتُ أطفالٍ من هنا وهناك. والعصافير الجميلة تتنقل بين الأغصان كأنها في كرنفالٍ سعيد بين أفراد العشيرة.

تَسللتْ من كل كوخٍ عيونٌ حيرى ترمقنا بنظراتها المتسائلة من بعيد. نظراتٌ ملؤها الخوف والريبة والسؤال. مَنْ يا تُرى هؤلاء القادمون الذين اقتحموا علينا أرضنا في غفلةٍ من حُراسِ الغابة؟ ومن ذا الذي أذن لهم بدخول هذه الأرض العصية؟ لعل الخوف الذي في داخلنا قد كان أضعافاً في صدور أهل القرية. ولم يجرؤ أحدٌ منهم على القرب منا بل

تسمرت خطواتهم وظلوا يراقبون حركاتنا وسكناتنا من بعيد بعيونٍ ملؤها الريبة والخوف رغم أنها لم تتحول عنا لحظةً.

حاولتُ تلمس الكاميرا التي في حوزتي لألتقط صوراً لتلك البيوت الساكنة التي لم أر مثلها من قبل، ولكنَّ مارهيني Marheni أشارت عليَّ ألا أفعل وإلا هرب الجميع، وقالت لي: «**دعنا نتأقلم معهم أولاً حتى يطمئنوا إلينا ثم بعد ذلك سيأتون إلينا طوعاً للتصوير أما الآن فإنهم لن يأمنونا وقد يفرون منا إلى آخر يوم**».

وعيتُ الدرس تماماً وقلتُ لها شكراً يا مارهيني على هذا الدرس الذي لولاه لكنا قد أضعنا صيدنا الثمين.

طلعتِ الشمس إلى كبد السماء والغيوم الزرقاء قد زحفت خلف التلال الخضراء التي أرسلت إلينا نسيمها العليل كتحيةٍ مضمخةٍ بأريج الدعاش ومحفوفةٍ بندى الورود. لم يدنس عطرها ذاك التلوث الذي ملأ شوارع المدينة ولم يغير صفاءها كدرُ الغبار الذي أقلق راحة أهل الحضر، ورويداً رويداً بدأت تظهر من حولنا معالم المكان.

الفصل الثاني

بداية المشوار المثير

الفصل الثاني

بداية المشوار المثير

❄❄❄❄❄

بينما كان الجميع يتأملون تلك اللوحة الرائعة ومعالمها الساحرة أشار حميزار للجميع أن ينطلقوا نحو البيوت حيث الفرصةُ مواتية للبداية خصوصاً وأنَّ معظم الأسر قد خرجت الآن من داخل الأكواخ وجلس أفرادها أمام البيوت. وكانت تلك لحظة البداية الحقيقية للمهمة الصعبة.

توزع كل الطلاب على مجموعاتٍ صغيرة حوت كل مجموعةٍ خمسةً منهم فيها ثلاثةُ أولادٍ وبنتان، أو ثلاثُ بناتٍ وولدان. كان كل طالبٍ يحمل كيساً صغيراً من البلاستيك أو ورق السيلوفان مملوءاً بأشكال من الحلوى والبسكويت. وانطلقنا جميعاً كلُ مجموعةٍ تتوجه نحو أحد البيوت.

كنتُ أراقبُ جميع تلك المجموعات وهي تتوجه نحو أهل القرية. إننا الآن على مرمى حجرٍ منهم، يا للهول أُناسٌ مثل أهل القرون الوسطى يجلسون جماعاتٍ أمام أكواخهم وكأنَّ حياة الغاب قد أكسبتهم سمات أسراب الغزال. لا يجرؤ واحدٌ على البُعد عن رفاقه الآخرين. سحناتهم لا تشبه سحنات الملايو ولا الآسيويين الذين يعيشون في الأرياف أو المدن. ألوانهم داكنة السواد وأنوفهم الضخمة الفطساء تتوسط وجهاً ناتىء

الجبهة مصقول الملامح. أقرب الوجوه إلى هؤلاء البشر هم قبائل البُوش مِنْ Bushmen في أدغال أفريقيا البعيدة. وقاماتهم القصيرة تذكر الإنسان بمغامرات جلفر في بلاد الأقزام. وهذه القسمات لا تعلوها أي مسحةٍ من جَمال بل كان قاسمها المشترك قساوة الملامح وخشونة الأطراف لدى النساء والرجال على السواء. البعض قد ربط رأسه بشريطٍ من قماشٍ متسخ والبعض قد أطلق العنان لشعره الأجعد الكثيف فنمى وتضرج بالعرق حتى لا يكاد الرأس يقوى على حمله. وتذكرتُ فجأة ملامح بعض القبائل الزنجية على ضفاف نهر الجور وتذكرت ملامح الإنسان الأول في أستراليا Aborigines.

كان الأطفال يتحلقون حول كل أسرة حتى حسبتُ أنَّ اليوم كرنفال الطفولة. يكاد يكون الكل قد أنجب في هذا الصباح فلا توجد أسرةٌ بلا سبعة أو ثمانية أو حتى عشرة أطفال. لم يكن هناك شيء مخفياً عن عيوننا حيث كل البيوت الآن أمامنا بجدرانها الخشبية التي تفتح على بعضها البعض، وكانت تبدو وكأنها منزلٌ واحد تناثرت غرفه بين الظلال لتحتمي كل غرفةٍ منها بظلٍ وريف.

كان الناس يجلسون القرفصاء أمام بيوتهم وبعضهم جلس على الصخور المتناثرة بين الأكواخ. وبعضهم اكتفى بإخراج رأسه من خلال النوافذ الصغيرة التي فُتحت على جنبات غرف المنازل. والقاسم المشترك بين الجميع هو الصمت الرهيب. لا أحد ينبس بحرفٍ من حروف الكلام بل عيونهم هي التي رطنت وقالت ملايين الكلمات وعبّرت عن كل ما يجيش بالنفوس الحائرة من قلق وتساؤلات عن هؤلاء الزوار المريبين.

ورويداً رويداً كنا أمام أحد البيوت التي أقيمت في المقدمة وجهاً لوجه مع أصحاب الدار. لم يكن سكان ذلك المنزل سوى خمسة عشر شخصاً. نعم كل هذا العدد في بيتٍ واحد والبيتُ لا يعدو أن يكون غرفة واحدة طويلة تفرش بالحصير الجاف أو عيدان القنا التي ينام عليها الناس. وهذه البيوت كلها قد صُممت على طرازٍ واحد حيث بنيت بالمواد الخفيفة ولا يتوقع من بناها أنَّ السكان سيحتاجون لتعقيدات المساكن الحضرية فجاءت بسيطةً في كل شيء.

ظل الخوف والقلق قاسماً مشتركاً بين الطرفين لولا حكمة الشاب الرائع حميزار الذي كسر حاجز الخوف والصمت وتقدّم في هدوءٍ وثقة إلى طفلٍ صغير كان يقف بجانب أبيه وقدّم له كيساً من الحلوى. تردد الطفل وتراجع خطواتٍ للوراء، ولكنَّ حميزار قال له بلهجة الأورانج أصلي: (**خذ يا بُنَيَّ ولا تخف**)، كانت هذه العبارة قد تعلمها خصيصاً لتسعف في مثل هذه اللحظات الحرجة والمثيرة.

تقدم الطفل والخوف يملؤه وأخذ الكيس، وسرعان ما ساعده حميزار بفتحه وناوله قطعة من الحلوى وقطعة من البسكويت ممسكاً ببقية الكيس في يده اليُسرى. وما أن تذوق ذلك الطفل طعمها اللذيذ حتى مدَّ يده مرةً ثانية طالباً المزيد منها. ولم يعطه حميزار قطعةً واحدةً بل ناوله الكيس بأكمله ثم عززه بكيسٍ آخر. عندئذٍ فقط انفرجت أسارير كل أعضاء الوفد، وأحسسنا أننا قد نجحنا إلى حد كبير في تنفيذ خطتنا بالشكل المرسوم لها.

تقدمنا لأطفالٍ آخرين والكل يفرغ ما لديه من أكياس الحلوى والبسكويت ويعطيها لهم حتى بدت الابتسامات رويداً رويداً تظهر على شفاه لم يزرها الابتسام على الأقل لبعض يومٍ وليلة. وهنا اطمأنت النفوس الجزعة. وحاولنا استغلال الفرصة لندخل أكثر فأكثر على الناس ونطمئنهم على صداقتنا وحبنا، ولكنَّ موسى أشار لنا أن نعود فهذا القدر يكفي لهذا اليوم وغداً سيأتي الجميع طائعين.

رحلة إلى النهر

(**طارق ليتوفيك**) Tariq Lituveque شابٌ رائعٌ بكل معاني الكلمة، صقلته التجارب وجعلته تواقاً لمعرفة الناس والتآلف معهم، فتعشق السمر والأنس. وهذا هو السر في العلاقة الوطيدة التي جمعت بيننا لأنني أشاركه نفس المزاج. جاء إلى ماليزيا لأن والده هو سفير جمهورية البوسنا والهرسك بكوالالمبور وقد كان لي شرف أن أكون أول من التقى بوالده في معية صديق مشترك هو الدكتور (الفاتح حسنين) الذي كان الساعد الأيمن لرئيس وزراء البوسنة السيد علي عزت بيكوفيتش رحمه الله.

وتطورت العلاقة بحكم أن طارق طالبٌ عندنا بالجامعة. وقد خطفت أيادي القدر السفير ليتوفيك فلاقى ربه وهو في عز النشاط بين أضابير العمل داخل سفارته بكوالالمبور.

جاء طارق إلى ماليزيا مع شقيقه (**أمير**) Amir الذي هو أيضاً طالب بنفس الجامعة الإسلامية ومعهم عشرات الطلبة

البوسنيين بعد أن مزقت الحرب الضروس بلادهم التي غزتها صربيا المجاورة في أعقاب تفكك يوغسلافيا. وقد استوعبتهم الجامعة الإسلامية وبعض الجامعات والمعاهد والمدارس الماليزية بأمرٍ من رئيس الوزراء د. محاضير محمد الذي التزم بذلك أمام البرلمان. ظلّ طارق مشاركاً في هذا البرنامج في كثير من رحلاته حيث يقود أحياناً سيارة الباجيرو التي نستخدمها في التنقل بين المدن والقرى وترحيل المأكولات التي نشتريها من الأسواق المتناثرة على طول الطريق إلى الغابة وغيرها من احتياجات الرحلة.

انهمكنا في أنسٍ طويل مع طارق وكنا نجلس على صخرةٍ صغيرة في طرف المعسكر. وفجأةً قال لي: دعنا نتجول في هذه الغابة بمعزلٍ عن برنامج المعسكر. وعلى الفور قلتُ له: هيا بنا. وخرج أنا وطارق نتنزه بين الأشجار الكثيفة. كان الطريق ضيقاً ومتعرجاً في معظمه، تحفه من الجانبين الأعشاب النامية بين الصخور. وبدت على جانبيه مجموعةٌ من شُجيرات جوز الهند التي تكثر وسط الغابات. وبمحض الصدفة وجدنا أنفسنا أمام النهر المسمى نهر روال Sungai Rual الذي سُميت به القرية.

كانت بالقرب من هذا النهر العديدُ من الأكواخ الصغيرة التي وقفَ أهلها ينظرون إلينا بشكلٍ مريب. ولربما تعجبوا من هذه التوليفة بين أفريقي أجعد الشعر وأوروبي يتطاير شعره في الهواء الطلق بلا دليل. ولعلهم تساءلوا عن سر هذا الغزو لغابتهم الوديعة من أناسٍ لم يروهم قبل هذا اليوم. لم يفتح اللهُ على أي واحدٍ منهم بسؤالٍ لنا، وإنما

اكتفوا بملاحقتنا بنظراتهم التي حملت ألفَ سؤال ولكنها لَمْ تَجرؤ على الإفصاحِ عن أي سؤالْ! وبعد دقائق من ذلك المسير وصلنا إلى النهر. ورغم قِصَرِ المسافة التي قطعناها للوصول إليه شعرنا بالإعياء الذي سرى في أوصالنا من وعورة الطريق والصعود والهبوط المتواصل بين الجبال.

يا لله، هل هذا نهرٌ حقاً؟ إنه يشبه جداول الماء الصغيرة رغماً عن طوله الممتد ما بين الوديان والجبال. لقد بدا النهرُ صغيراً أكثر من اللازم. ولا أحسبُ أنَّ من جاء من ضفاف نهر النيل العظيم مثلي سيطرأ على خياله يوماً أنَّ بالأرض أنهاراً مثل هذا الذي أراه أماميَ الآن. كان عرضُ النهر لا يتعدى الأربعة أمتارٍ في أحسن حالاته، وعمقه لا يتعدى نصف المتر أو المتر في كثير من الأحيان.

هذا النهرُ العجيب يجري على أرضٍ غطتها صخور الصوان البيضاء منذ غابر السنين حيث ينحدر من قمم الجبال الشاهقة التي تشهد أمطاراً غزيرةً لا تتوقف طوال العام. وتظل المياه تتدفق عبر الشلالات إلى السفوح وتلتقى عند نقطةٍ واحدة في وسط الغابة فتجرى على أرضٍ صخريةٍ ممتدةٍ على طول القطاع الغربي لتلك الغابة الشاسعة. ونسبةً لخلو مجراه من الطين والتراب فإنَّ مياهه تبدو أصفى من الماء الزلال في كؤوس الكريستال. وتبدو قطع الصوان البيضاء والحجارة في قاعه كأنها الياقوت وسط رقرقة مياهه العذبة والجارية على مر الدهور.

بدا لي النهر في رقته وصفائه ونقاء مائه وصغر حجمه كجدول ماءٍ صغير اندفق في غفلةٍ من هطول أمطار الخريف. ووسط إعجابي برقته ونقائه رأيتُ طارق يخلع حذاءه ويحمله في يده ليعبر النهر مشياً على قدميه، ودعاني لأفعل نفس الشيء. وبلا ترددٍ خلعتُ حذائي وعبرتُ معه إلى الجانب الآخر فلم تبتل منا إلا أطراف الأقدام. ضحك طارق وقال لي: «**تعرف هل لماذ خلعتُ حذائي؟**» قلتُ له «**طبعاً خلعتُه حتى لا يتبلل بالماء**». ففاجأني ضاحكاً بقوله: «**كلا أنا خلعتُ حذائي خوفاً على هذا النهر الرقيق من أن تُدنسه قَذَاراتُ المدينة التي تتمثل في هذه الأحذية التي نلبسها**». وضحكنا من أعماقنا أنا وطارق لهذا الظُرف الأوربي النبيل في التعامل مع معطياتِ غابات الملايو.

أثناء مسيرنا لفت طارق انتباهي إلى شيء لاحظه كثيراً في هذه الغابة وقال لي: «**هل لاحظتَ أنَّ جميع فتياتِ هذه القبيلة يُشبهنَ فِتيانَها شبها شديداً؟**» قلتُ له: «**نعم وفي كثيرِ من الأحيان لا يكاد الإنسان يميز بين الفتى والفتاة خصوصاً الأطفال في سن التاسعة أو العاشرة**».

قال لي أيضاً هناك شيء لاحظته منذ البداية وهو أنَّ نساءهم يتميزن بأثداء في غاية الضخامة إلى درجة الشذوذ، وهذا أمرٌ مخالف تماماً لما عليه حال المرأة الماليزية عموماً. قلتُ له إن هذه الملاحظة أبداها جميع أعضاء الوفد منذُ أن تعرفنا على أهل القرية لأنها ظاهرة لافتة للانتباه بشكلٍ ملحوظ خاصةً وأنَّ فتيات الغابة لا يرتدين الحجاب الذي تتزيا به معظم نساء الملايو، ولا يغطين رؤوسهنَّ كما هو الحال عند

الملايويات. وفي الجانب الآخر من النهر وجدنا صخرة بيضاءَ في غاية الجمال والنقاء كأنما وضعتها كف القدر لنتأملَّ من خلالها روعة الخلق في هذه البقاع النائية القصية. وبلا اتفاقٍ رغبنا كلانا أنا وطارق في الجلوس عليها لنتأمل سحر الطبيعة. ودون سابق اتفاق انخرطنا في أنس طويل تشعب بين كل ما أمامنا وما يجيش في خواطرنا. سألتُ طارق عن طبيعة الأنهار في أوربا فقال لي: «**كانت لدينا في مدينتنا الصغيرة بوسط جمهورية البوسنة الجريحة مثل هذه الأنهار الصغيرة. إلا أنها كانت موسمية تأتي مع هطول الأمطار، ولكن ليس لها مثلُ هذا النقاء لأنَّ التلوث الذي أضر بكل شيء في أوربا قد قتل الروح في أنهارنا ثم زحف على ذواتنا فأسكت فينا شريان الحياة. وغيرت لون أنهارنا النفايات التي يُلقيها أهل المصانع حتى صارت الأسماك تخرج وكأنها مشوية من داخل النهر**».

ووجدت نفسي مشدوهاً لطارق وهو يسترسل في حديث الذكريات عن البوسنة ومعاناة أهلها الطيبين رغم أن ظلال الحرب قد بدأت تنحسر عنها رويداً رويداً. ولم يقطع حبلَ ذكرياتنا إلا صوتُ أطفالٍ ونساءٍ وضوضاء كان واضحاً أنها ليست بعيدةً عن تلك الصخرة التي كنا نجلس عليها. قادنا الفضول إلى ذلك المكان فوجدنا ثلاث فتياتٍ كنَّ يقفنَ في وسط النهر ويقف حولهنَّ في وسط الماء أربعةٌ من الصبية الصغار بينهم طفلةٌ لا تكاد تتعدى السنة الثالثة من عمرها. اقتربنا منهن، وتفرسنا فيما حولهن، فوجدناهن منهمكات في صيد السمك.

كان الاصـــطيادُ بدوره أمراً غريباً ما رأيت مثله إلا في هذا النهر العجيب. لم تكن هناك شِباكٌ للصيد ولا صناراتٌ ولا حبالٌ يشـــدها الصـــائدون، وإنما كانت الفتياتُ يلتقطن الســـمك بأيديهنّ من داخل النهر. نعم تمد الفتاةُ يدها للسمكة التي تروق لها وتقبضها من الماء كما يلتقط الإنسانُ ثماراً من شـــجرةٍ دانية القطوف. ولكن كانت جلود الأسماك اللزجة تفلت من الفتيات ليبدأ صـــراعُ البقاء بين الطرفين والمطاردة المضـــحكة التي لم تفلت منها سمكةٌ واحدة بفضـــل براعة الفتيات. واستخدمت بعضهن نوعاً من العصي الصغيرة ذات الرؤوس الحادة التي تشـبه الســنارة التي تنغرس في جســم السمكة فيسهل أخذها عن طريق هذه العصي.

كان الشـــيء الغريب في هذا النهر رغم ضـــيق ضـفتيه وضـحالة عمقه ونقاء مياهه أنه يحمل أرتالاً من الســمك لا تحلم بها الأنهار الكبيرة وبينها أسماكٌ كبيرة جداً في حجمها. ولم أصـدق أنَّ هذا النهر بحجمه الصـغير هذا يقوى على إيواء هذه الكمية من الأسماك، ولكنها غابات الملايو !!

عدنا إلى مقر المعسكر أنا وطارق بعد أن أخذ الإعياء منا مأخذه في هذه الرحلة القصـيرة. وبدأ كل واحد منا يفكر في الطريقة التي يريح بها جســده من وعثاء هذا الرحيل والجهد المضـــني بين الأحراش. ولم يكن في مخيلتي غير الارتماء على سـرير وثير إذا شـاءت لنا المقادير أن نصـل إلى غايتنا وهو مكان المعسكر.

وســـط هذا الإعياء والمســـير الشـــاق التقينا بســـتةٍ من طلابنا في الطريق بينهم فتاتان كانوا يتجولون بين المنازل فاســـتوقفتهم أربعُ ماكيناتٍ صـــغيرة تشـــبه ماكينات غزل الأقطان ثُبتت على الأرض تحت سقف حديديٍ صغير ثُبت بين الأشـــجار التي تتوســـط أكواخ القرية. كانت كل ماكينة تحوي بَكرةً تشـــبه عجلة قيادة الســـيارة ولها مقبض يحركه الإنســـان فتدور البكرات بشـــكلٍ مســـتمر. إنخرطتُ أنا وطارق في جوقة هؤلاء الطلاب الســـائلين عن هذه الآلات المثيرة للفضـول والتي تقف بلا رقيبٍ أو عتيد بغرض أن نعرف حقيقتها وطبيعة عملها، وكان لنا ما أردنا. كانت بيننا لحســـن الحظ الطالبة مُوســـــــتُويا Mustoyah وهي تدرس في كلية علوم الوحى بالجامعة الإســـلامية العالمية وجاءت معنا للغابة وهي تتمتع بمعرفة واسعة بكل أشكال وأنماط الحياة في هذه البقاع.

حدثتنا موســـتويا عن تلك الآلات التي تحلقنا حولها وســـط الأحراش، وقالت: «**هذه الآلات لا علاقة لها بالأورانج أصـلي وإنما هي تتبع للعاملين في زراعة المطاط. وتوضـع هذه الآلات في العادةً في الأماكن التي يكثر فيها شـــجر المطاط وسط الغابات. وكما هو معلوم فإنّ ماليزيا تعتبر أكبر دولة منتجة ومصـــدرة للمطاط في العالم. وقد درج الأهالي على حصـــاد ســـائل المطاط من هذه الأشـــحان عن طريق كيزانٍ معدنية صغيرة تُثبتُ على جذوع الشـجر، وتُجرح ساق الشجرة فيسـيل المطاط منها ويملأ هذه الأكواب الصـغيرة فيحملها العمال ويجمعونها في حاويات أكبر. وبعد تجميع السائل من عدة أشـجار يكون قد تحول إلى عجينة متماسـكة وقوية فيقوم**

بعض المشتغلين بهذه الحرفة بوضع تلك العجينة في هذه الماكينات التي ترونها أمامكم ويحركون البكارات فينضغط عجين المطاط بين أسطوانتين فيخرج في شكل رقائق يختلف سُمكها حسب حجم الضغط وحسب حجم المسافة بين الاسطوانتين. وكما هو ملاحظ فالماكينات الأربع تتدرج فيها الأحجام حتى ترق الشرائح في المرحلة الأخيرة وتُجمع للتصدير إما للمصانع المنتشرة في أنحاء ماليزيا وإما إلى خارج الدولة».

استمتعنا بشرح مُوسْتُويا عن هذه الثروة، ولكن كان الإعياء شديداً علينا فعدنا إلى المعسكر. وما أن وصلتُ حتى أخلدتُ للنوم العميق رغم أن طارق لم يستسلم مثلي للنوم وإنما ظل يحكي للرفاق ما رأيناه من غرائب ذلك النهر الجميل الغريب حقاً.

بَعدَ ساعةٍ من الزمان صحوتُ من نومي لأجد بعض فتيات الأورانج أصلي قد تجمعن حول أحد البيوت القريبة وقد علت ضحكاتهن التي واكبتها ضحكات عالية تنبعث من مكان قريب. وسمعنا تصفيقاً عالياً وترانيم رتيبة تشبه أهازيج السمر في الليالي المقمرة، فحملتُ دفاتري وأقلامي وتوجهتُ فوراً نحو المكان.

كان معي شابٌ اسمه (**عبد الحليم**) Abdulhalim جاء إلى القرية بالأمس، وعلمتُ منه أنه سيتولى عملية التدريس بعد رحيل الأستاذ (**رملي بن أوانق**). قال لي عبد الحليم إنك محظوظ، فالفتيات الآن يتأهبن للرقص رغم أنَّ الناس هنا لا

يرقصـون إلا نادراً جداً. وعندهم رقصـةٌ واحدة لا يعرفون غيرها إسمها رقصـة سـيوانج Sewang وهم لا يـرقصـونها إلا إذا جاءهم ضيف عزيز. ولعل أهل القرية الآن قد اطمأنوا لمقدمكم وفرحوا به. وهذه الرقصـة يشـترك فيها كل الحاضـرين بلا اسـتثناء رجالاً ونسـاءً صـغاراً وكباراً فدعنا نمتع العينين بهذا الحفل المخصـص لكم. وبلا مقدمات بدأ الرقص الذي سـرت عدواه في الجميع. وحتى نحن قد انخرطنا دون وعيٍ في جوقة الراقصين. كل الأهالي يرقصـــون ونحن نجاريهم وقع الحافر على الحافر. ورمقتُ بقربى أحد الراقصين الذين خرجوا من الحلبة فسألته هل تعبتَ من الرقص؟ فقال كلا إننا نرقص السـاعات الطوال، ونلعب السـاعات الطوال ولا نعرف الملل. وكانت حلبةُ الرقص فرصـةً أكبر لي لأتمعن أكثر فأكثر في السـحنات والممارسـات التي فات عليَّ ملاحظتها في لحظات اسـتقبالنا الأولى.

وليمة يصنعها الضيوف

في المسـاء خرجنا جميعاً إلى السـاحة الكبيرة التي تمثلُ ميداناً فاصـلاً بين المصـلى الذي نسـكنه وبيوت القرية الأخرى. وجلسـنا على ترابيز طويلة من الخشـب صـنعناها من الألواح التي أحضـرناها معنا من مدينة كوتا بارو لتسـاعدنا في إعداد الطعام. وأخرجنا عدداً كبيراً من الأطباق المليئة بالأرز والدجاج المشـوى ووضـعناها على تلك الترابيز الطويلة. وما أن جلسـنا حولها لتناول الطعام حتى جاء الأطفال من كل اتجاه

وتحلقوا حول المكان فانتهزنا تلك الفرصة الثمينة ودعوناهم. قلنا لهم لا تخافوا ويمكنكم أن تتناولوا ما تشاؤون من الطعام ونادوا آباءكم وأمهاتكم فهذا الطعام كله لكم.

تركنا الطعام على الترابيز وانصرفنا للمصلى، ثم عدنا بعد دقائق لنجد جميع سكان القرية قد التهموا تلك الأطباق التي باتت أفرغ من فؤاد أم موسى. ولم تزل أعدادهم الكبيرة حول المكان فقلنا لهم لا تذهبوا واجلسوا فهذا الحفل لكم، بقى الجميع نساءً ورجالاً شيباً وأطفالاً وشباباً. وكانت فرصةً لنا أن نقترب أكثر وأكثر من هؤلاء القوم العجيبين.

كان السعد قد غمر نفوسنا مرةً أخرى لأننا قد نجحنا في استقطاب هؤلاء الأهالي بسهولةٍ ويسر، وكان حاجز الخوف قد تبدد وبدأت بعض الابتسامات والقفشات بل وحتى الضحكات تظهر من هنا وهناك. طلبنا منهم أن يعتبروا الحال واحداً لأننا جئنا إليهم نمد يد الصداقة والمحبة والعطاء. وهكذا اقتربنا من أهل القرية وتبدد الشك المريب وحلَّ محله وئامٌ شديد ما لبث أن تحول إلى مودةٍ وظرف ملأ علينا كل الحواس.

في تلك الأثناء تملكتنى رغبة عارمة في الكتابة، وسيطر عليَّ الحس الإعلامي وقررت أن أبدأ في تسطير كل ما أراه في غابات الملايو. وانداحت عليَّ كل التساؤلات التي كنتُ قد طرحتها من قبل عندما كنا في الطريق نحو الغابة. في تلك اللحظة تقدم نحونا شيخ القبيلة الذي يُطلق عليه بنقهولو Penghulu أو توك باتن Tok Batin ومعناها بلغة الملايو

زعيم القبيلة أو شـيخ القرية. وهو بمثابة العمدة أو الناظر في القبائل العربية. وهو الذي يدبر شؤونها مع مسئولي الحكومة لأنه المسئول عن كل صغيرةٍ وكبيرة.

كان إحساسي بأنَّ زعيم القبيلة أو شيخ القرية لابد أن يكون مميزاً بكل مقاييس الزعامة ويتميز بهندامٍ خاص وشـخصـية مهيبة ومظهرٍ أنيق، إلا أنَّ شـيئاً من ذلك لم يكن بادياً على بنقهولو مات دين. فقد كان الرجل بسـيطاً لدرجة الفقر المدقع. وعليه ثيابٌ لم أرَ أبسـط منها في تلك القرية وطاقيةً خضراء غاب لونها من شدة العرق وندرة الغسيل. كان عمره قد تجاوز الستين وخطَّ الشـيب على رأسه فتجعد الوجه المستدير الصغير ليبدو كطفلٍ صغير عركته الأيام ولعبت به تصاريف الزمان.

الفصل الثالث

❄❄❄❄❄

حوار مع شيخ القبيلة

الفصل الثالث

حوار مع شيخ القبيلة

❋❋❋❋❋

وصـــل زعيم القبيلة بنقهولو مات دين Mat Din وحيانا باللغة الملايوية قائلاً: «Selamat pagi »، ومعناها في الملايوية صـــباح الخير، رددنا عليه التحية وبعد أن جلس معنا قلتُ له:

«إنني ســـعيدٌ جداً بلقائك، وكما ترى فإني قد قدمتُ من مكانٍ بعيد لأتعلم منكم وأعرف الكثير عن فنون الحياة لديكم، وعندي الكثير من التســـاؤلات حول الحياة في هذه الغابة وطبيعة الأورانج أصلي وكيف يفكرون ويأكلون ويشربون، بل وكيف يتعاملون مع هذه الأحراش القاســـية التي ترتجف أوصال أهل المدن لمجرد سماع إسمها، وأرجو أن أجد أجوبة على كل هذه التساؤلات قبل أن أعود إلى كوالا لمبور».

ضحكَ الزعيم مات دين وقال لي: «**مرحباً بك في بلاد الأورانج أصلي وسأجيبك عن كل تساؤلاتك**». وقبل أن أواصل معه التفتُ إلى الأستاذ رملي بن أوانق وسألتُه عن مؤهلات هذا الزعيم الذي يحكم القبيلة ولماذا هو يلبس هذه الأسمال البالية؟ قال الأستاذ رملي: «**ليست له أي مؤهلات مثله مثل كل قادة الأورانج أصلي في بقية الغابات، حيث إنَّ مؤهلهم الأول والأخير هو إجادة اللغة الملايوية فقط**».

شارك بعضُ الحاضرين في الإجابة مؤكدين أنَّ دور البنقهولو الرئيسي هو الذهاب لمكتب رعاية شئون الأورانج أصلي في مدينة جيلي Jeli أو في العاصمة (**كوتا بارو**) Kota Baru ليتحدث عن أوضاعهم وينقل المعلومات والمطالب إذا وجدت ويلتقى بالمسؤلين أو الضيوف الذين يزورون الغابة من وقتٍ لآخر لأنه بمثابة الناطق الرسمي باسم القبيلة.

ويتقاضى بنقهولو مات دين مرتباً سنوياً قدره 600 دولار ماليزي. وهو يتسلم هذا المبلغ المتواضع من موظف يأتي من مكتب رعاية الأورانج أصلي بمدينة جيلي Jeli التي تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة من القرية. والغريب أنَّ هذا المرتب لا يُصرف شهرياً ولا سنوياً وإنما يُصرف مرتين في العام حيث يتسلم في كل مرة مبلغ 300 رنقت.

وسألتُ محدثي عما إذا كان هذا المبلغ يكفى لرئيس القبيلة فأجابني أنه ليس مبلغاً كافياً بمقاييس الحياة المدنية ولكن بالنسبة لإنسانٍ يعيش في هذه الغابة يكفى ويزيد لأنَّ الحياة هنا تختلف وأساليب الصرف لا تشبه المدينة.

كان هذا الحديث فرصةً لي فتوجهت بالحديث للشيخ مات دين وقلتُ له: «**أرجوك أن تحدثني عن الأشياء التي يشتريها سكان هذه الغابة، من أين يشترونها؟ وأين يجدون المال لذلك؟**».

أجابني بنقهولو مات دين بقوله: «**الناس هنا لا يحتاجون للمال لأنهم يعيشون على خيرات الغابة**». وهنا تدخل بعضُ الحاضرين بالحديث عن أهل الغابة، مؤكدين لي أنهم يأكلون من ثمار الغابة المتنوعة والفواكه الكثيرة التي تنمو لوحدها في كل أرجاء المكان، ولا تحتاج من الإنسان لأكثر من أن يلتقط بيده ما يريد ويأكله هنيئاً مريئاً. وهم يشربون من ماء النهر الذي يجري خلف بيوتهم ليلاً ونهاراً ويغسلون منه ملابسهم ويأكلون من أسماكه الوفيرة طوال العمر. وإذاما أرادوا أكل اللحوم فإنهم يصطادون الحيوانات المتوفرة في الغابة. وعندما يودون الطبخ فإنهم يوقدون نيرانهم من الحطب الذي يجمعونه من حول البيوت. ولا يحتاج الناس هنا للسيارات لأنهم يمشون المسافات الطويلة التي تعودوا على قطعها أيام أن كانت طبيعتهم الرحيل. فهم لم يتعودوا الاستقرار في مكان واحد إلا خلال السنوات العشر الأخيرة.

والناسُ في هذه الغابة لا يحبون الأسفار مطلقاً رغم أنهم كانوا يمارسون حياة الترحال قبل أن يستقر بهم المقامُ هاهنا. ولعلهم لا يحبون السفر لأنه يضطرهم إلى دخول أماكن أخرى لم يألفوها وهم لا يحبون ذلك مطلقاً. وفي بعض الأحيان يخرجون إلى القرى المجاورة لشراء بعض الحاجيات التي تتمثل غالباً في الأرز والتوابل التي تُستخدم في الطبخ

وربما بعض الملابس والتبغ الذي يبيعه بعض سكان القرى المجاورة.

قلتُ للزعيم مات دين: «**ولماذا لا تُقيمون سوقاً خاصاً بكم في هذه القرية ليريحكم من تعب المسير ولو مرةً في الشهر؟**» فأجابني على الفور قائلاً: « **لا لا نحن لا نحب هذا أبداً، ولم يفكر أحدٌ مجرد تفكير في بناء سوق أو دكان لا في هذه القرية ولا في سواها، ولا أعتقد أننا نرغب في ذلك**». وسألته بعدها عن أسلوب العلاج الذي يمارسونه في حالات المرض أو الجروح والكسور التي تحدث للأهالى بين وقتٍ وآخر، فأجابني قائلاً: «**نحن لا نعرف المستشفيات ونقوم بعلاج كل شيء بأنفسنا. وهذه الغرفة الصغيرة التي تراها خلف تلك الأشجار هي عبارة عن غرفة طبية بنتها حكومة كلنتان لعلاج الناس مرةً في الشهر ولكني لم أدخلها حتى الآن ولا أعرف ما في داخلها**».

قلتُ له: «**وما هي العقاقير التي تعالجون بها المرضى؟ وهل هناك شخصٌ مختص في العلاج أم يمارسه الجميع؟**» في تلك الأثناء سمعنا جلَبةً وضوضاء من مجموعةٍ من الشبان كانوا ينظفون بعض العصى على مقربةٍ منا وجاء أحدهم نحو شيخ القبيلة يتبعه الآخرون وكان يتلوى من الألم حيث لدغه ثعبانٌ من فصيلة (**الكوبرا**) Cobra التي تكثر هنا عندما كان يجمع الحطب من طرف القرية.

كان الشابُ لا يقوى على الحركة ولا حتى الكلام من شدة الألم. وتحدث بنقهولو مع بعض الحاضرين الذين كانوا قلقين ويتحدثون بانزعاجٍ ظهر على وجوههم جميعاً. وسرعان

ما نهض رجلٌ كبيرٌ من بينهم ودخل كوخه الصغير وأحضر كوباً صغيراً به زيت، وما أن عاد بذلك الزيت حتى انفضّ جميع الواقفين حول الشاب الملدوغ مفسحين المجال لذلك الرجل ليؤدي مهمته بعناية. ووقفنا متسمرين نرقبُ ما يدور حولنا بعيونٍ تحملُ في حدقاتها ألف سؤال.

ووسط إشفاقِ الحاضرين من الألم الذي أصابه وضعفهم تجاه تقديم أي شيء له مسح الرجل مكان الألم بقليلٍ من ذلك الزيت الذي أحضره وتمتم بكلام مبهم لم يتبين أحدٌ منا مفرداته ولم يعرف أحدٌ ماذا يقول وفجأةً نهض الشابُ الملدوغ وكأنه قد صُعقَ بصدمةٍ كهربائية، ونفض رجله الملدوغة ووقف أمام الحاضرين وكأنه لم يشعر بأي ألم. نظرتُ إليه ملياً وعبرتُ عن استغرابي لهذا العلاج السريع وكان موسى بالقُرب مني فضحك قائلاً: «**إنها فعلاً مسألةٌ تُحَيِّرْ أن يتمَّ علاج لدغة ثعبان سام بهذه السرعة، وأضاف: لو لم يكن هؤلاء الناس بهذه المهارة العجيبة لهلكوا وسط الطبيعة القاسية**».

انتهى كل شيء في دقائق، وانفض الناس من حول المكان وتفرقوا إلى حالهم إلا أنا وموسى. لم أكد أصدق ما يدور أمامي حيثُ إنه بدا لي وكأنه ضربٌ من ضروب الأساطير. وكنتُ مصراً أن أعرف الحقيقة فتوجهت بنظراتي إلى بنقهولو مات دِين Penghulu Mat Din رئيس القرية الذي كان يراقب كل ذلك المشهد وسألته عن سر ذلك الزيت العجيب وكيف يمكن للملدوغ الثعبان أن يشفى بمجرد مسحةٍ واحدة من ذلك الزيت؟ وقلت له خبرني عن التعاويذ التي قرأها ذلك

الشيخ عندما كان يمسح الزيت على قدم الشاب؟ وما علاقةُ ما قرأ بمفعول الزيت؟

أجابني بنقهولو مات دين قائلاً: «**أولاً هذا زيتٌ عادى مثل الذي يأكله الناس في الطعام، ولكنَّ لا بُد أن تُقرأ هذه التعاويذ مع مسحه لأنها تساعد على الشفاء من لدغة أي ثعبان. وطبعاً بمساعدة الزيت ينتهي مفعول السم ويتلاشى الألم**». قلتُ له: «**إذن ما هذه التعاويذ التي قرأها الرجل؟**» قال: «**أنا لا أعرف هذه التعاويذ لأن المُداوي لا يَبوحُ بها لنا**». كان الفضول قد تملكني أكثر من أي وقتٍ مضى وأصريتُ أن أعرف تلك التعاويذ وما أصلها وما صلتها بالسحر أو الدين أو الشيطان ولكن للأسف لم أجد إجابةً تشفى غليلي عند أحد الحاضرين. الجميع مثلي لا يعرفون هذه الأسرار وكلهم يرغبون في معرفة شيء عنها ولكن دون جدوى. ووسط ذلك الإصرار على عدم إعطاء أسرار تلك التعاويذ قلتُ لشيخ القرية إذن دعنا من نص هذه التعاويذ ولكن قل لي من أين جاءت؟ وهل الجميع يقرأونها للتداوي من الأمراض أم أنها مقصورة على أشخاصٍ بعينهم؟ وهل هي دواءٌ لكل داء أم أنها تستخدم فقط للعلاج من لدغة الثعبان؟

هنا انبرى الأستاذ عبد الحليم Abdulhalim ليجيب على سؤالي رغم أنه جاء ضيفاً ولكنه يعرف الكثير عن أسرار هذه القرية وقال لي: «**في الواقع إنَّ هذه التعاويذ لا يعرفها إلا القليلون هنا وكذب من قال لك إنه يعرفها غير بعض الأفراد الذين يقومون بعلاج من يلدغه الثعبان. وهي تستخدم في حالات لدغة الثعبان أو العقرب**».

قلتُ له: «**وهل هي بنفس الكفاءة التي رأيناها الآن في حالة لدغة العقرب؟**» فأجابني: «**نعم، وهي لا تُستخدم إلا في هاتين الحالتين فقط**». قلتُ له: «**وهل هذه التعاويذ والزيت تعتبرُ علاجاً ناجعاً في كل الأحوال أم في بعض الحالات فقط؟**» قال الأستاذ رملي: «**إنها علاجٌ ناجعٌ في كل الأحوال، ولم يحدث أن لُدغ أحدهم واستعصى علاجه، فكل من كانت له هذه الأعراض شُفي منها حالاً وها أنت قد رأيتَ ذلك بنفسك**». قلتُ لشيخ القبيلة بنقهولو مات دين: «**هل لك أن تحدثني عن أهل هذه القرية وتاريخها ولماذا أقيمت في هذا المكان الموحش؟**» قال مات دين: «**في الواقع إنَّ قرية سونقاي روال التي تراها أمامك الآن هي قريةٌ صغيرة بها عدد قليل من السكان لا يتجاوزون المائة شخص كلهم من صنف الأورانج أصلي. وهي قرية حديثةٌ جداً في هذا المكان، حيث لم تكن هناك قرىً ولا مدن في هذه الغابة. كان الناس يرتحلون من مكان إلى مكان طوال عمرهم يبحثون عن الهدوء والسكينة. لا تنقصهم الظلال ولا الطعام ولا الشراب ولا المأوى. ولكنهم جُبلوا على الرحيل. وهم لا يحبون حياة الخنوع والبقاء في مكان واحد مهما تكن الظروف**».

قلتُ لشيخ القبيلة مات دين: «**إنك تقول إنهم لا ينقصهم المأوى وحسب علمي أنهم كانوا يبيتون في العراء فكيف ذلك؟**». قال: «**نعم هذا العراء هو المأوى المحبب للأورانج أصلي، وهم لا يعرفون السكن داخل الغرف، بل إنهم لم يروا بيوتاً إلا عندما استقروا في هذه القرية قبل فترةٍ وجيزة. ومعظمهم كان قد رفض السكن داخلها لأنها تعتبر**

كالسجن بالنسبة لهم، وقد فرّ معظمهم من هذه القرية إلا هذا العدد القليل الذي تراه أمامك الآن».

قلتُ له: «إذن كيف كانوا يعيشون في العراء وأنا أعلم أنَّ الأمطار تهطل طول السنة وكل يوم». قال: «هذه هي الطبيعة التي نعرفها ونحبها ولا نرضى بها بديلاً، فنحن لا نخشى الأمطار ولا الصواعق والبروق التي تصاحبها بكثافة، بل على العكس تماماً، حيث إننا عندما يهطل المطر نجري بين الأشجار في أوج الهطول، ونظل نلعب، ونقطع الأشجار، ونأكل الطعام، وننام تحت الصواقع والصقيع، ولا ينتابنا إلا الفرح والسرور». كان هذا الكلام هو عين الحقيقة لأن جميع البيوت بلا سقوفٍ مُحكمة، وإنما معظمها مفتوح من أعلى ليدخل المطر والناس بالداخل، وتدخل أشعة الشمس الساخنة والناسُ نيام، فهم يعيشون على الطبيعة التي ألفوها من خلال حياة الغاب.

قلت للتوك باتن: «إذا كان الأمر هكذا فلماذا إذن سكنتم في هذه البيوت؟ ومن الذي بناها لكم؟» قال: «ما كنا نريد أن نسكن في بيوت، وإلى الآن لا تعجبنا هذه البيوت، ولكنَّ المسئولين حاولوا مراراً أن نستقر في مكان واحد بغرض تقديم خدماتٍ لنا، وقلنا لهم إننا لا نريد خدمات لأنَّ احتياجاتنا الحقيقية توفرها الغابة العذراء أكثر مما توفرها الحكومات أو سكان المدن. ولكن أصرت الدولة على بناء هذه الأكواخ. وقد بقيت خاليةً لسنواتٍ عديدة لا يقربها أحد، وما أن نراها حتى نتذكر قيود المدينة. ولكن يبدو أنَّ الدولة كانت أذكى منا فقد أحضرت بعض المدرسين ونقاط العلاج وقدمت الطعام

والكساء واللُعب لمن يستقر في هذه البيوت، وشيئاً فشيئاً انهزم بعض الأفراد خصوصاً الشبان ودخلوا هذه الأكواخ وكيفوها بالشــكل الذي يروق لهم، وبذلك انجذب البعض إليها وهم الذين تراهم أمامك الآن. أما بقية الأورانج أصلي فلا يزالون يسـرحون بين الأدغال وليس من السهولة أن يسجنوا أنفسهم بين هذه الأخشـــاب». قلتُ له: «وهل تعتقد أنَّ الذين بالغابة الآن أكثر تخلفاً أو شـــراســـةً من الذين قد ســـكنوا هذه الأكواخ؟». قال: «إنني لا أحسبُ أننا شرسـون أو متوحشـون»، وتداركتُ الأمر قائلاً: «عفواً يا سيدي أنا لا أقصد ذلك وإنما قصدتُ هل تتعاملون مع وسائل الحياة الحاضرة أكثر منهم؟» قال: «كلا فنحن هنا لا نحب الأشـــياء التي نراها في المدينة عندما نزورها بحكم وضعنا كمسئولين عن القرية ولا يمكننا أن نحبها إطلاقاً».

قلتُ له: «وما هي الأشـياء التي لا تعجبكم في المدينة؟» قال: «السيارات والدكاكين والمدارس والتلفزيون وغيرها مما تضـج به المدن». قلتُ له: «إذن ماذا تحبون؟» قال: «نحبُ صـيد الحيوانات، ومطاردة الثعابين، وجلب الأدوية من بين الأعشـاب النادرة التي لا توجد في كل أنحاء الغابة والتي يحتاج إحضـارها لمجهودٍ وبحثٍ وشـجاعة. ولعل حبنا لهذ الأعمال قد نبع من طبيعة الغابة نفسـها. فإنَّ الإنسـان إذا لم يمارس كل هذه الأشـــياء ويتأقلم عليها لا يمكنه أن يعيش يوماً واحداً. وحتى أطفالنا يتعلمون مثل هذه الحياة تلقائياً لأنهم يولدون تحت ظلال الشـجر ويأكلون فوق أغصان الشجر وينامون بين جذوع الشـجر، إذن فلماذا نخاف من وعورة الأدغال ومصـاعب

الطبيعة ». قلتُ له: « **حقاً إنَّ حياة الأدغال حياةٌ قاسـية رغم متعتها التي نراها ماثلةً للعيان، والتي ظهرت من خلال هذا الحديث. والآن هلا حدثتني عن أسلوب الولادة والموت عندكم؟** » قال: « **هذا أمرٌ يطول، وأسـئلتك قد كثرت، وأنا أريد أن أذهب إلى أحد الوديان خلف ذلك الجبل لإحضـار دواء لبنتي وهو أحد جذوعِ شـجرةٍ تنمو بكثرة في ذلك المكان**». فقلتُ له: «**وداعاً وإلى اللقاء**».

من هم الأورانج أصلي؟

الأورانج أصلي هم سلالاتٌ من البشر عاشت ولم تزل منذ غابر العصور في بلاد جنوب شرق آسيا وتمارس كل حياتها بين الغابات والأدغال. لا يعرفون حياة الحضـر ولا يؤمنون بالمدنية الحاضـــرة ولا ينخرطون في تعقيدات الحياة التي تعيشـــها الشعوب من حولهم ولا تشغل بالهم معطيات هذا العصر المليء بالمآسـى والهموم. ولقد ظلوا على مر القرون يمارسـون أنماطاً من الغرائب لا تكاد تتصورها مجتمعاتنا الحاضرة.

والأورانج أصــلي تختلف سـحناتهم ولغاتهم وطبيعتهم من مكانٍ لآخر. وهم يعيشـــون في بقاعٍ متفرقة من منطقة جنوب شـرق آسـيا. وفيهم ذوو البشـرة السـوداء وذوو البشـرة الصفراء وذوو البشرة البيضاء. فمثلاً عندما يتمعن الإنسان في سحنات أفراد هذه القبيلة التي بدأنا بها في قرية سـونقاي روال يجد أنهم سود البشـرة إلى الحد الذي ظننا معه أنهم قد نزحوا

من أدغال أفريقيا واستوطنوا في هذه البقاع النائية. ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث.

إنهم آسيويون أباً عن جدٍ بل ولا يعرفون شيئاً عن قارةٍ إسمها أفريقيا. وأكثر من ذلك لا تربطهم بمجموعات الأورانج أصلي الأخرى التي تعيش في ماليزيا أي روابط ولا جذور ولا علاقات. فهؤلاء الذين يعيشون في قرية سونقاي روال هم من صنفٍ يُسمى الجَهاي أو الجهايز Jahai. والجهاي هم المجموعة التي تقطن في شمال ولاية كلانتان قرب الحدود الماليزية مع مملكة تايلاند، ويتمركزون في الغابات المحيطة بمنطقة جيلي Jeli وهي مدينة صغيرة تمثل حلقة الوصل بين أهل الغابة ومكاتب الحكومة في مدينة كوتا بارو. وهذا الصنف من الأورانج أصلي لهم أنوفٌ فطساء مفلطحة وبها فتحات كبيرة ظاهرة للعيان ومرتفعةٌ إلى أعلى قليلاً. وربما كان ذلك بسبب تمركزهم وسط الغابات الشيء الذي يصعب معه استنشاق الهواء النقى بين هذه الأشجار الكثيفة والمتشابكة وهذه الجبال التي تحف كل جوانب الغابة المترامية الأطراف.

ولرجال الجهاي شوارب صغيرةٌ جداً ذات ملمس ناعم في كثير من الأحيان. وهي لا تكاد تزيد على شوارب الصبية البالغين حديثاً وكذلك اللحى، لذلك فهم لا يحتاجون لحلاقتها. إلا أنَّ شعر الرأس كثيفٌ وفي غاية الخشونة والسواد. وفي نفس ولاية كلانتان توجد مجموعةٌ أخرى من الأورانج أصلي تعيش في مرتفعات كاميرون هايلاندس Kameron Highlands وهى مجموعةٌ تختلف سحناتها عن الجاهايز وتسمى التميار Temiar.

وأفراد قبيلة التميار يعيشون في غاباتٍ كثيفة الأشجار في الجزء الجنوبي من الولاية. حيث إنَّ منطقة كاميرون هايلاندس تعتبر من أعلى المناطق في ماليزيا يصل ارتفاعها إلى عشرين ألف قدم فوق سطح الأرض وتؤمها قبائل السواح من كل أنحاء العالم يستمتعون بطقسها البارد الممطر. حيث لا يتوقف المطر طوال السنة. ويعيش الناس بين حدائق الشاي والفراولة Strawberry التي يقطفونها طازجة من الأرض ويأكلونها وقتما أرادوا دون دفع أي ثمن للبائعين. وتعيش قبائل الأورانج أصلي في تلك البقاع بعيداً عن صخب المدن والقرى المحيطة بها. وعندما يعبر المسافرون الشوارع الخلوية المتعرجة للوصول إلى تلك المزارع يشاهدون أحياناً بعض أطفال وفتيان الأورانج أصلي يخرجون من بين الأشجار بين الفينة والأخرى وكأنهم يريدون أن يمتعوا عيونهم بمشاهدة أولئك السواح القادمين من بلاد الدنيا الواسعة. وهم عندما ينظرون إلى هؤلاء القادمين لا ينطقون بحرف واحد لا مع السواح ولا مع بعضهم البعض وكأنهم لا يعرفون لغة التخاطب. يظلُ الصمتُ مخيماً على المكان والكل ينظر للآخر كأنه يستكشف المجهول بين يديه. وتنقضي لحظات المشاهدة فيدخلون الغابة.

وبين مجموعتي الجهاي أو الجهايز والتميار تعيش قبيلةٌ أخرى من الأورانج أصلي تسمى مانريك Manrik، أما بقية قبائل الأورانج أصلي الماليزية فتتوزع بين أربع ولايات وعددهم أربع عشرة قبيلة هي:

1/ جاكون Jakun في ولاية جوهور.

2/ سملاي Semalai في ولاية بهانج.

3/ تموان Temuan في ولاية بهانج.

4/ بري Beri في ولاية بهانج.

5/ سِماي Semei في ولاية بيراق.

6/ لانوLanoh في ولاية بيراق.

7/ كانتا Kentak في ولاية بيراق.

8/ كنسيو Kncu في ولاية بيراق.

9/ كانداسان Kendassan في ولاية صباح.

10/ إبان Eban في ولاية سرواك.

11/ جهاي Jahai في ولاية كلانتان.

12/ تميار Temiar في ولاية كلانتان.

13/ مانريك Manrik في ولاية كلانتان.

14/ باتيك Batik في ولاية كلانتان.

بالطبع فإنَّ لكل قبيلة من هذه القبائل عاداتها وتقاليدها التي قد تتشابه وقد تختلف مع بقية القبائل. إلا أنَّ الروابط بينهم كما أسلفنا ضعيفة جداً بحكم عدم التواصل بينهم ووجود كلٍ منهم في غابةٍ وعرة المسالك لا يعرف

القاطن فيها شيئاً عن بني البشر المجاورين له ناهيك عن البعيدين عن عيونه ووجدانه وقلبه.

وأفرادُ قبيلة الجهايز أخبروني أنهم لا يعرفون شيئاً يسمى العيد، ولا يحتفلون به، ولا يعرفون وقت مجيئه. كما أنه لا توجد في تاريخ القبيلة مناسباتٌ تستدعي التخليد أو الاحتفال بها سنوياً أو موسمياً كعيدٍ من أعياد القبيلة. ولكن رغم ذلك فإن لهم حتفالاتهم التي تقام في طقوسٍ متواضعة وهي غالباً ما تتعلق بأفراد الأسرة الصغيرة مثل مقدم الطفل الجديد والزواج ومقدم الضيوف إلى قريتهم. فعند ميلاد طفل جديد يحتفلون بتقديم الطعام لأهل القرية. وأكثر ما يقدمونه في هذه المناسبات هو الأرز وثمار الأشجار ولحم الحيوانات التي يصطادونها من الأحراش. ورغم أنهم يحتفلون بميلاد الطفل الصغير إلا أنهم لا يعرفون أعياد الميلاد السنوية ولا يحتفلون في يوم السماية كما تفعل معظم الشعوب. والجهايز لا يُعطون المولود الجديد إسماً إلا بعد أن يبدأ في الحَبو كنايةً عن أنه قد صار عضواً فاعلاً في المجتمع. وإذا تأخر الطفل في الحبو تأخرت تسميته والعكس صحيح. وهم لا يفرقون بين الولد والبنت في تلك الطقوس، بل ولا يعرفون التفاؤل بالولد أو التشاؤم بالبنت كما هو الحال عند بعض الشعوب فالكل سواء عند الأورانج أصلي.

أما طقوسُ الزواج فهي في غاية البساطة. حيث لا يقومون بإجراء عقدَ النكاح المتعارف عليه بين كل الماليزيين ولا يقيمون حفلاتٍ للزفاف أولا يرسلون هدايا العرس التي درج عليها بقية أهل الملايو. وكل ما في الأمر أن يجد الشاب الفتاة

التي يريد أن يتزوجها من بين فتيات القبيلة وبعد ذلك يخطر والدها برغبته في الزواج منها. وهنا لا يملك الوالد إلا أن يوافق على هذا الطلب.

وفي هذا الشأن دار حوارٌ بيني وبين الأستاذ رملي بن أوانج الذي قال لي: «**لا يوجد والدٌ يمانع في زواج بنته لأنه ليست له أي مصلحة في تلك الممانعة ولذلك فهو يوافق على أي طلب يتقدم به أي شاب لزواج بنته**». والغريب في الأمر أنَّ الشاب المتقدم للزواج لا يقول للوالد أريد أن أتزوج بنتك وإنما يقول له: «**أريد أن أقضي الليلة مع ابنتك فلانة**». وهذه العبارة على ما فيها من إشارة غير مهذبة وفُحش وسوء تركيب ظاهري قد يؤدي إلى مفهومٍ مغلوط ومعنى غير جيد إلا أنها لدى قبيلة الجهايز لا تعني إلا الرغبة في الزواج فقط ولا شيئ سِواه.

بعد إخطار والد الفتاة برغبة الخاطب في الزواج من بنته يُبدي الوالد موافقته في حينها ويأخذ الشاب فتاته ويذهب بها إلى حيثُ يشاء في الحال. لا شروط ولا عقد نكاح ولا مهر ولا إخطار لبقية أهل الفتاة الذين قد يكونون بالقرية. والزواج دائماً يكون في سنٍ مبكرةٍ جداً لدى الأورانج أصلي، حيث يتزوج الشاب ما بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة والفتاة ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة.

ولكل شاب مطلق الحرية في أن يصحب عروسه معه أو يبقى معها في بيتها، حيث لا يملك أحدٌ حق التصرف في شئون العريس مع عروسته. أما الولائم فإنها ليست ضروريةً في الزواج رغم أنَّ بعضهم قد يدعو أهل القرية في اليوم الثاني أو

الثالث لزواجه. وقد أخبرني الأستاذ رملي أنه حضر واحدةً من هذه الولائم المتواضعة.

وقال لي إذا كان العريس يملك بعض الطعام أو النقود فإنه يدعو بعض الأفراد لتناول الطعام معه إيذاناً ببدء العُرسْ وإن لم يكن عنده ذلك أو ليس لديه الرغبة فلا أحد يطالبه بذلك أو يسـأله عنه. بل ولا يُلام على ذلك التصـرف لأن المسألة في الأساس لا وجود لها كعرفٍ أو تقليد ملزم للجميع. ومن تبعات الزواج لدى الجهاي أن الأب الذي يتزوج إبنه أو بنته يُسـقِطُ من تزوج من حسـاب أبنائه. وقد تبينتُ هذه العادة بالصـدفة عندما كنتُ جالسـاً مع حميزار Hamizar وجافيد Javeed وهو طالبٌ بنغلاديشـي يجيد كثيراً من اللغات الآسـيوية، فجلس قبالتنا رجلٌ كبيرٌ في السـن كان يدخن بشراهة وبالقرب منه طفلٌ صغير يأخذ منه السيجارة ويعيدها إليه في مشـهدٍ لم يرُق لأبناء المدينة الذين لاموه على ذلك. وكان هذا الرجل في غاية اللطف والدعابة مما بدد غضـبتنا على ذلك السـلوك. وقال هذا إبني الصـغير وأنا ألعب معه كثيراً وهو يحب ذلك ولا يفارقني إلا عند النوم.

وهُنَا سأله جافيد: كم إبناً لك؟ فقال: «**عندي خمسة أبناء**». وكان الخمسة يلعبون حول مجلسنا في تلك اللحظة. وفي صـبيحة اليوم التالي كان الرجل أمامي عندما كنا نشاهد سباق الرماية. وانبرى أحد الشبان الأقوياء ودخل حلبة المنافسـة، وكان بارعاً في رماية الرمح إلى حدٍ بعيد. فالتفت إلي جاري وقال: « **إنه إبن نفس هذا الرجل**»

فقلتُ له: «**كلا إنَّ جميع أبنائه الخمسة أطفال صغار وقد كانوا معنا بالأمس**». وعندما اشتد الجدل بيني وبينه سألته عن صحة ما قاله محدثي فقال لي: «**إنه كان إبني في الماضي ولكنه الآن لا يُعتبرُ إبني لأنه قد تزوج وأصبح رجلاً. فنحن هنا لا نعتبر الإبن إبناً إلا قبل الزواج ولكن بمجرد أن يتزوج نسقطه من حسابات الأبناء لأنه قد استقل بحياته وبدأ تكوين أسرة جديدة تحمل اسمه وتأتمر بأمره**». وسألته هل تنقطع حتى العلاقات العائلية مع الإبن الذي يتزوج فقال: «**لا تنقطع، ولكنه يعتبر بمثابة الصديق فقط**».

زواج تحت سقف المصلى

لعل القدر قد أراد لنا أن نقف على إحدى زيجات الأورانج أصلي التي تمت أثناء وجودنا في تلك الغابة. ففي إحدى الأمسيات، وبعد أن أكمل الإمام صلاةَ العصر دخل شابان صغيران وفتاتان صغيرتان إلى المصلى الذي يُسمى بلغة الملايو سوراو Surau، وقال أحدُهما: «**إننا نريد الزواج الآن فهل يمكنكم أن تعقدوا لنا؟**»

اندهش جميع الحاضرين من الطلبة والطالبات، وقال أحدهم أين أولياء أموركم؟ وأين الشهود؟ وأين أهل الزوج وأهل الزوجة؟ ولم يُجب الشابان، واكتفيا بعبارة: « **ليس لدينا كل هذا** ». وعلى الفور تناول الحديث أحدُ الطلاب واسمه (**شارول**) Shahrol **قائلاً**:

«أعتقد أنَّ الأفضل أن نَعقِدَ لهؤلاء الشباب، وإلا فإنكم تعلمون أنَّ هذه البقاع لا تعرف عقد النكاح ولا تعرف المراسم ولا الشرع، وما داموا قد لجأوا إلى المسجد فلنجعل زواجهم على سنة الله ورسوله دون تعقيد للأمور».

في هذه الأثناء حضر بنقهولو مات دين وكان مجيئه في الوقت المناسب تماماً، وطرح عليه الحاضرون الأمر طالبين منه أن يكون ولياً لهؤلاء العرسان الصغار فرَحَّبَ بالفكرة. وجلس الشابان على جانبٍ من المُصَلَّى على الأرض، وجلستِ الفتاتانِ على الجانب الآخر قُبالَةَ الحاضرين. كانَ بين الحاضرين الأستاذ (**نازرول**) Nazrol وقد جاء ضمن وفدٍ حُكومي ليقف على ترتيبات زيارة الملكة التي ستُشارِكُنا جانباً من هذه الرحلة تلبيةً للدعوة التي وجهناها لها. وكان نازرول يُصلِي بنا إماماً فطلبنا منه أن يقوم بمباشرة إجراءات العقد لهؤلاء الشباب ما داموا قد جاءوا طوعاً للمُصَلَّى. وسألهم عن أسمائهم فقال الأول: «**إسمى رُسلي بن رحمن، وهذه الفتاة التي أريد زواجها إسمها سِيدا بنت نابي**». وقال الشاب الثانى: «**إسمي حسين بن مراجو، وإسم خطيبتي سادرا بنت حميد**».

وسألهم المأذون عن أعمارهم فقال رسلي عمري 15 سنة وعمر خطيبتي 12 سنة. أما حسين فكان عمره 14 سنة وعمر خطيبته سادرا 12 سنة. سأل المأذون العريسين أن يدفعا شيئاً من المال ليعتبر مهراً فأخرج كلاهما ورقة صغيرة من فئة العشرة رِنقت Ringgit. والرِنقت هو العملة الماليزية التي يُطلق عليها اسم الدولار أيضاً. والدولار الأمريكي يساوى 3.7 رنقت تقريباً. وضحك الجميع حين قال الإثنان بصوتٍ واحدٍ

للمأذون أعطنا الباقي. وهنا سـأـلهما المأذون: «**كم تريدان أن تدفعا مهراً للعروس؟**» فقال رسـلـي: «**أنا أدفع أربعة رنقت**».
وقال حسين: «**أنا أدفع ثلاثة رنقت**».

بحث الجميع في جيوبهم فلم يجدوا (فَكَّة). وأخيراً اقترح عليهما أحدُ الحاضـــرين أن يعتبرا هذه الـ10 رنقت مهراً للزواج، على أنَّ هذا المال لن يضـيـع أصـلاً وقد يعود للزوج أو يكون مشـتركاً بينهما ويمكن أن يسـتفيدا منه سـوياً لأنه في نهاية الأمر ليس مبلغاً كبيراً. ووافق العريسان على ذلك، وتَمَّ عقْدُ القِران. طلب المأذون من جميع الحاضـــرين أن يُهنئوا العرائس الجدد على أن يُصـافح الرجالُ الحاضـرون الزوجين الجديدين وتُصـافحَ الطالبات العروسـتين. وهذا بالطبع على عادة أهل الملايو الذين لا يقبلون إطلاقاً المصـافحة بين الرجال والنســاء. وقد أخذ هذه العادة الإسـلامية الصـينيون وهنود التاميل وغيرهم من الأعراق المختلفة التي تعيش في دولة ماليزيا. حيثُ إنَّ مُعظَمَ الماليزيين لا يُصـافحون النسـاء سـواءٌ أكانوا مسـلمين أو غير مسـلمين. وإذاما أخطأ أحدهم ومدَّ يده لامرأةٍ بغرض المصـافحة فهو في أغلب الأحيان سـيُصـدُّ بشـكلٍ محرج. وقد حدث لنا هذا عندما دخلنا ماليزيا أول مرةٍ في أواخر عام 1990م حيث جئنا مجموعةً من السـودانيين الذين تم تعيينهم كمحاضـــرين في الجامعة الإسـلامية العالمية بماليزيا وهممنا بمصـافحة موظفات الجامعة اللائى كنَّ يتابعن إجراءات تســجيلنا وكاد ذلك الأمر أن يؤدي إلى كارثة تقضــي بإنهاء عقودنا قبل البدء ولكنا فهمنا لاحقاً طبيعة الناس في هذه الديار. وقلنا لهم إننا في السـودان لا نتبع

هذه العادة بل يصافح بعضنا بعضاً رجالاً كانوا أو نساءً عدا القليلين.

قام الجميعُ بمصافحة العرسان الجدد بالمصلى وكانت تلك أول وآخر تهانى تقبلوها في هذا الزواج السعيد حيث خرجوا من المصلى وذهب كلُ واحدٍ في حال سبيله وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

كان ذلك الزواج مناسبةً لي لأسأل الحاضرين سؤالاً، إذا عرفنا أنَّ الزواج يتم هنا بأبسط الاجراءات التي لا تتعدى إخطار الوالد وأخذ البنت بلا عقد قران فهل نتصور أنَّ العلاقات الجنسية غير الشرعية تمثل هوساً لأهل هذه القرية من قرى الأورانج أصلي؟ فقال الجميع كلا وألف كلا. الناس هنا لا يعرفون الزنا في حياتهم قط. ولا يجرؤ أحدٌ مهما كان وضعه أن يراود امرأةٍ ليست زوجته. فهم لا يعرفون ذلك ولا يعرفون ما يسمى بالخيانة الزوجية. ورغم أنهم لا يدينون بأي دين ولا تحكمهم أي قوانين إلا أنَّ فطرة الإنسان هنا هي العفاف المطلق في هذه الأمور. ولا تجد شاباً من شباب هذه القرية يعرف شيئاً عن الجنس قبل أن يتزوج. ويبدو أنَّ ذلك هو السبب في الزواج المبكر لدى أبناء القبيلة. وهم مخلصون إلى حدِ بعيد للزوجة التي لا تفارق زوجها إلا لماماً بعد الزواج حتى في ساعات العمل إذا وُجدتْ وسط الغابات.

تتميز نساء هذه القبيلة بنسبة الخصوبة العالية التي تصل إلى أقصى معدل عرفته البشرية. فيمكن للمرأة منهنَّ أنْ تلد باستمرار في كل عام. ولذلك يصل عدد الأطفال في

الأسـرة الواحدة إلى تسـعة أو عشـرة أو خمسـة عشـرة في بعض الأحيان. وهم لا يعرفون الولادة في المسـتشـفيات وإنما تلد الزوجة داخل بيتها بمسـاعدة أي واحدة من نسـاء القرية ممن لديهن الخبرة.

وهناك دائماً امرأةٌ تقوم بدور القابلة رغم أنها لم تتخصـص في هذه المهنة الدقيقة ولا تنال أجراً على ما تؤديه من عمل من الحكومة أو الأفراد وإنما يُسـتعان بها بطريقةٍ طوعية في حالة الحاجة إليها. وحتى هذه القابلة البسيطة لم يعرفوها إلا بعد أن استقروا في السنوات الأخيرة في هذه القرية الصـغيرة. حيث كانت الولادة في الماضـى تتم تحت أي شـجرة أثناء ترحال الأسـرة وأينما أدركها المخاض تضـع مولودها وتحمله حالاً على ظهرها وتواصـل الترحال. وعادةُ حمل الأطفال على الظهور هذه عادةٌ قديمة تمارسـها نسـاء القبيلة حيثُ يوضـع الطفل على ظهر أمه و يُربط بثوبٍ أو أي قطعة قماش ليكون مشـدوداً على ظهر أمه ولا يظهر منه إلا الرأس لزوم التنفس، وتتدلى رجلاه الصـغيرتان تحت الثوب المربوط. وهذه العادة برمتها نجدها عند بعض القبائل الأفريقية كالفولانى والهوسا والزغاوة والفور في أواسط وغرب أفريقيا. وقد أثبت بعض الأطباء والعلماء أنَّ هذه الطريقة في حمل الأجنة تساعد المرأة على المحافظة على رشاقة قوامها، فضلاً عن فوائدها الجمة للطفل في نمو عظامه وقوة بدنه.

لقد شكلت الخصوبةُ العالية لدى نساء الأورانج أصلي مشـكلةً حقيقية لأفراد القبيلة الذين بدأوا يتضـايقون من العدد الكبير للأبناء. ولكنهم تغلبوا على كثرة الإنجاب

باللجوء إلى تنظيم النسل. ولهم طريقةٌ غايةٌ في الدقة والنجاح حيث تقارب نسبة ضمانها المائة في المائة. وكنتُ شغوفاً طوال الأيام الأولى بمعرفة هذا الأمر حتى قال لي أحدهم يمكنك أن تسأل شيخ القبيلة توك باتن مات دين وهو سيجيبك عن هذا الأمر. وانتظرتُ مَقْدَمَهُ خصوصاً وأنه قد وعدني سابقاً بالإجابة على بقية تساؤلاتي لاحقاً. والتقينا أمام كوخ الأستاذ رملي بن أوانق حيث كان بنقهولو توك باتن ينظف إحدى العِصي من اللحى والأوشاب التي بها.

جئتُ إليه وحييته وقلتُ له: «**طبعاً ما زلنا على وعدنا بمواصلة الحديث، حيث إنني أريد أن أعرف كيف تنظمون النسل في هذه القرية؟**» ضحك توك باتن مات دين ونادى على أحد الشبان الذين كانوا يجلسون على جذع شجرةٍ ضخم أمام منزل الأستاذ رملي بن أوانج وطلب منه أن يذهب إلى بيته ويحضر قطعةً من (**البنجارانج**) Penjarang. قلتُ له: «**وما هو البنجاران؟**»، قال لي: «**صبراً، ستراه بعد قليل**». وعاد الشاب بسرعةٍ يحمل قطعةً صغيرة من جذع إحدى الأشجار لا يتعدى طولها البوصتين وسُمكها في حجم سُمك أصبع الإبهام العادي وقال لي: «**هذا هو السر في تنظيم الولادة عندنا**».

ومد إليَّ تلك القطعة الصغيرة فتناولتها وبدأتُ أتأملها بتمعن، ودون أن أشعر وجدتُ أنَّ الفُضولَ قد قادَنِي لأضعَها في فَمِي لأتذوق طعمَها، فوجدتُه أقربَ للأراك الذي نستخدمه للسواك في العالم العربي وأفريقيا. قال لي التوك باتن هذا البنجارانج يعتبر من أندر النباتات في الدنيا حيث لا يجرؤ أحدٌ على الحصول عليه إلا إذا كان شجاعاً وقوياً بمعنى الكلمة،

ذلك لأنه ينمو في أعماق الغابات الكثيفة. ودون الوصول إليه مصارعة الوحوش الضارية والحيوانات الشرسة والثعابين السامة والأشجار المتشابكة. وتكثر حول المكان الذي ينمو فيه مجموعات الغوريلا الضخمة من صنف الأورانج أُتان Orangutan أي إنسان الغابة. ولذلك فلا يتصدى للذهاب إلى مكان نموه إلا الشبان الشجعان. وإذا ما تمكن أحدهم من الوصول إلى ذلك المكان فإنه يجلب معه أكبر كميةٍ يستطيعها بغرض توزيعها على أهل القبيلة ويعتبر فعله هذا ضرباً من ضروب البطولة.

وسرحتُ بخيالي بعيداً في روايات ألف ليلة وليلة والشاطر حسن وشعرات الغول السبعة وكيف أنَّ مهر الأميرة كان وراء سراب وادى الموت عبر البحار والسهول والوديان. وكدتُ أغرق في الخيال الجامح الذي قادنى سنواتٍ عبر الأساطير القديمة. أفقت لأجد أنني أمام الأساطير وجهاً لوجه، تلك الأساطير التي لم تكن إلا حقيقةً ماثلةً نصب عيني، حيث قال زعيم القبيلة: «**إذا أرادت المرأة أن لا تنجب أطفالاً فإنها تأكل من هذا النبات قطعةً صغيرةً في أمسية الثلاثاء ثم تعيش حياتها الزوجية بشكلٍ طبيعي. وفي أمسية الثلاثاء القادم تأكل نفس الكمية الصغيرة تلك. وتظل على هذا الحال طوال الشهور إلى أن تقرر بنفسها الوقت الذي تريد فيه إنجاب طفل جديد فتتوقف عن تناول هذا النبات وتعطيه لغيرها من المحتاجات**». وفي أغلب الأحيان فإن النساء هنا يتناولنه بعد إنجاب الطفل الأول لمدة عام أو أكثر حتى يكون الفارق بين الطفل وأخيه عامين كاملين.

قلت له: ولماذا عامان بالتحديد؟ قال إننا نعتقد أنَّ الطفل إذا تمكن من الرضــاعة لمدة عامين كاملين فإنه يكون أقوى وأقدر على معايشــة الطبيعة القاســية في هذه الغابات الوعرة. قلتُ له وهل قرأتم نص القرآن الذي يقول: [**وفصالهُ في عامين**] قال: «**لا نعرف ذلك**»، قلتُ له: «**إنَّ القرآن الكريم نصَّ على ذلك الأمر حين أوحى للأمهات بأن يرضعن أولادَهن حولين كاملين**»، قال أنا لا أعرف ذلك.

وســألتهُ بعد ذلك: «**لقد قلتَ إنَّ المرأة يجب أن تتناول هذا النبات في أمســية الثلاثاء من كل أســبوع فهل تقصــد الثلاثاء تحديداً أم أي يوم تشــاء؟**» قال: «**لا إنني أقصــد يوم الثلاثاء بالتحديد**». قلتُ له: «**ولماذا يوم الثلاثاء بالتحديد وليس غيره؟**» قال: «**نحن نؤمن بأنَّ يوم الثلاثاء هو يومٌ ليس كبقية الأيام الأخرى وهو يمثل يوم السعد بالنسبة لنا**». قلتُ له: «**إذن لماذا لا تعتبرونه عُطلةً أســبوعية لكم؟**» قال: «**وما العطلة؟ وما قيمتها بالنســبة لنا؟ الناس هنا لا يحتاجون للعطلات. فحياتنا كلها عُطلة مستديمة لأننا نعيش بحرية مطلقة**».

وشـعرتُ بصـدق هذه الحقيقة، حيث يبدأ اليوم في الغابة عند الصـباح الباكر بجلوس جميع أفراد الأســرة أمام بيوتهم يتسـامرون ويلعبون، ليس في فكرهم قيود الحياة ولا الالتزامات التي تقيد أهل المدن وموظفى المكاتب، لا ســاعة عندهم ولا مواعيد، وفي الليل ينامون وبالنهار يتحركون في أي اتجاه يشـاءون. ليس هناك إحساس بالوقت. وهم مغرمون بمجالسهم العائلية التي تكون أمام البيوت، يجلس فيها النســاءً والرجال،

شيباً وشباباً، يتسامرون طوال الوقت. ويمكن للواحد منهم أن يبقى في هذا المجلس العائلي شهراً كاملاً إذا أراد لا يأمره أحدٌ ولا ينهاه. وهم لا يخرجون إلا للضرورات مثل جلب الحطب من الأشجار التي تكثر حول القرية بل وفي أي مكان يروق لهم. والماء على مرمى حجر من أي بيت وهو ماءٌ عذب تعيش فيه الأسماك التي لا نفاد لها. إذن لماذا الإجازات والعطلات؟

كانَ ليلُ القريةِ قد أرخى سدوله، ونامت جميع الكائنات إلا أنا. تحسستُ جهاز الراديو الصغير الذي أحمله معي في كل مكان، وجدته يقبع داخل حقيبة اليد التي ألقيتها في ركن المصلى وكأنه يشكو من الهجران طوال الليالي الفائتة. أخرجته من الحقيبة كمن وجد كنزاً بعد طوال غياب وأدرت المؤشر باحثاً عن صوتٍ من بلادى أو لسانٍ يعيدني إلى وطني. فالعجمة قد أهلكت أوصالى ونثرت في فؤادى جرحاً عميقاً لا تضمده إلا أريحية لغة الضاد ولسان العرب. وتجولتُ بين المحطات التي كثرت رطانتها وحديثها الذي لا أفهمه حتى عثرتُ على ضالتي وهي إذاعة الكويت. كان صوت (**ناعس الجندي**) في (**أخبار جُهينة**) يداعب أذني ويعيد الثَبات إلى قلبي طالقاً لتفكيري العنان ليسبح بين وديان العروبة الفسيحة ويتجول بين ثنايا لغة الضاد التي افتقدتها وافتقدت معها لسان أهلي وعشيرتي. وساعدني فرق التوقيت بين عالمنا العربي وجنوب شرق آسيا، حيث إن هذا البرنامج كنتُ أتابعه في بلدى بعد الساعة الثالثة ظهراً والآن أسمعه في آخر الليل الهزيع. وشيئاً فشيئاً زارنى طيف النُعاس واستسلمتُ لنومٍ عميق بين أحضان القرية النائمة بين التلال.

أطلَّ الصباح وبدأناه كعادتنا بصلاة الفجر في المصلى الذي لم يكن فيه من المصلين اليوم إلا بعض الطلاب واثنين من الأورانج أصلي هما عمدة القرية وأحد الشبان الذين يسكنون بالقرب من المصلى. ولعل الإعياء الذي سرى في الجميع قد كان سبباً في عدم مجيء المصلين، وأقمنا الصلاةَ رغماً عن كساد الصفوف.

بعد أداء الصلاة وقراءة شئٍ من آي الذكر الحكيم خرجنا من المصلى فإذا بالطلاب قد بدأوا في صنع الطعام. وبعد دقائق قليلة نودينا للإفطار الذي كان يتكون من أقراص خبزٍ صغيرة صنعت من دقيق القمح وحُمرت في الزيت مع الساردين وإدام الكارى المخلوط بالتوابل حيث إنها في العادة تؤكل بهذه الطريقة أو بالعسل وأحياناً باللبن. وهذه الأقراص يسميها الماليزيون روتي شاناي Roti Chanai وقد صنعتها والدة الطالبة مارهيني Marheni ووضعتها في بعض الصناديق لكي تكون لنا زاداً أثناء بقائنا بالغابة. ولا شك أن مثل هذا السلوك الذي فعلته أسرة مارهيني سلوك كريم وينبئ عن الأخلاق الفاضلة والكرم الفياض الذي غمرونا به عندما نزلنا عندهم ضيوفاً في هزيع الليل الأخير. وها هو فضلهم يتبعنا حتى وسط الأدغال.

وكرم الريف معروفٌ في كل بقاع ماليزيا، وهو على العكس من سكان المدن الكبيرة مثل العاصمة كوالا لمبور حيث لا ينشغل الناس كثيراً بمسألة الضيافة إلا في أضيق نطاق. وأنا أذكر أن والدة مارهيني لم تنم طوال الليل عندما كنا في معيتهم وكانت منهمكة في السهر على راحة الضيوف الذين

تفقدتهم فرداً فرداً حتى لا يضيع من أحدهم غطاؤه في ذلك الليل. ولم تكتف بضيافة الجميع في ذلك المنزل الجميل الذي تحفه أشجار الفواكه من كل مكان وإنما صنعت كمية ضخمةً من هذه الفطائر التي أتحفتنا بها قائلةً: «**اعتبروا هذا الروتي شاناي زاداً لكم في الغابة**».

وفطائرُ الروتى شاناي هي في الأصل طعامٌ هِندي أدخله إلى بلاد الملايو هنود التاميل الذين يُمثلون ثالث مجموعة عرقيةٍ وطنية في دولة ماليزيا. كان في مائدتنا أيضاً أطباقٌ أخرى مختلفة مثل الأرز المحمر الذي أجادت طهيه في تلك الرحلة الطالبة (**مُوسْتُويا**) Mustuyah وهو أيضاً يُعتبر واحداً من أهم الوجبات في بلاد الملايو ويُطلقون عليه اسم ناسي قورينق Nasi Goreng. حيث الأرز هو الغذاء الرئيسي لدى الماليزيين كما هو الحال في كل بلاد آسيا كالصين واليابان وأندونيسيا والفلبين وتايلاند وغيرها. والمائدة الماليزية تحفل بكثير من أصناف الأرز بأشكالٍ مختلفة، حيث لا يكاد يخلو منزلٌ منه. والدجاج هو الآخر رفيقٌ للمائدة في معظم الأحيان. وأساليب الطهي تختلف من نوع إلى آخر أي حسب المسميات. ولعل أكثر ما يحبه الناس هنا الأرز بالدجاج الذي يسمى Nasi Ayam.

تبغ وحكايا بين الأدغال

التدخينُ من أكثر العادات المحببة لمعظم أفراد الأورانج أصلي الذين يولعون به إلى أقصى الحدود. ولا يكاد يوجد شابٌ

أو فتاةٌ يسـير بدون سـحائب الدخان الكثيفة التي تملأ أرجاء المكان حوله. ورغم ذلك فإنَّ الجميع لا يعرفون شكل السجائر العادي الذي يباع في الأسـواق وإنما يصنعون لفافاتٍ من التبغ الطبيعي الذي يسـمونه بلغتهم تمباكو Tembakau حيث يجمعونه من الغابة التي تكثر فيها حقول التبغ الطبيعية ويلفونها بأوراقٍ صغيرة تُسمى نيبا Nipah حتى تبدو في شكل السجارة العادية ثم يدخنونها بشراهةٍ وتلذذ شديدين.

وكلا التبغ ونبات النيبا تنمو بكثرة في غابات الملايو الاستوائية. حيث إنَّ نبات التبغ هو نباتٌ صغيرٌ أشبه بالخضروات العادية. أما النيبا فهو أشبه بشجرة زيت النخيل أو شجرة البلح الموجودة بكثرة في البلاد العربية كالعراق وشمال السودان وصعيد مصر وغيرها. ولما كانت لفافات التبغ هذه يستخدمها جميع أفراد الأورانج أصلي الذين وجدناهم في قرية سونقاي روال لأن التدخين لا يُعتبر عادةً سيئة عندهم ولا يعتبرونه عيباً إذا مارسه الصغارُ أو الفتيات فقد أثر ذلك تأثيراً واضحاً في شكل ولون أسنان كل أفراد القبيلة بلا استثناء. وحتى الأطفال لا يجدون حرجاً في ذلك ولذا فإنهم يدخنون أمام الكبار بشكلٍ طبيعي. والجميع متحمسون لتعاطيه طوال ساعات اليوم في مجالسهم الجماعية، وهم يفعلون ذلك كلما وجدوا إليه سبيلاً لأنه سلوتهم الأولى والأخيرة. ولا يكاد ينجو أحد من أفراد قبائل الأورانج أصلي في غابات كلانتان الملايوية صبياً كان أو كهلاً، رجلاً أو امرأة من مشاكل ترسبات مادة النيكوتين الداكنة اللون على أسنانه من كثرة التدخين، خصوصاً وأنَّ أفراد القبيلة كلهم

لا يهتمون بالمعجون أو فرش الأســـنان، بل ولا ينشـــغل أحد بقضـــية الســـواك. ولذلك بدت أســـنانهم مثل قطع الفحم البالية، داكنة السواد، وليس في مظهرها أي لمسةٍ من الجمال.

أشـــاح كثيرٌ من القادمين بوجوههم عندما بدأ البعض يتبســـم أول مرة فظهرت أســـنانه وكأنها عظامٌ أحرقتها نيرانُ الأثافي. ولما أحســـسـنا بأن هذا هو شـأن الغالبية قررنا أن يكون تعليمُ أطفال الأورانج أصلي كيف يتسوكون وكيف ينظفون أســـنانهم جزءاً من برنامجنا، وأرســـلنا مندوباً عنا قام بشـــراء كميةٍ كبيرة من الفرش ومعاجين الأســـنان من مدينة كوتا بارو وعاد بها إلى القرية لتكون جزءاً من الهدايا التي تقدم للأطفال الصغار أثناء البرنامج. جاء المندوب يحمل ما طلبناه منه وبدأ بعض الطلاب يمارســـون شـــتى أســـاليب التعليم للأطفال ليعلموهم السـواك. وقد بدأ البعض يمارس السـواك في العراء على مرأى من الأطفال حتى يقلدوه. ثم وضـــع الطلاب بعض المعجون على الفرش وأعطوه للأطفال الذين بدأوا يقلدونهم، وكانت النتيجةُ أنْ أكلَ جَميعُ الأطفالِ ما لديهم من معجون وطالبوا بالمزيد.

كان من ضـمن الذين أبهجوا ليالينا بالرحلة الصـديق العزيز (**بولاش**) Polash الذي صـــبرَ كثيراً مع الصـــديق (**جافيد**) Javeed لأيامٍ عديدة يدربون أطفال الأورانج أصـــلي على السِواك. وعندما كنتُ أتجاذب أطراف الحديث مع بولاش Polash لَفَتَ انتباهي فجأةً قائلاً: «**أنظر يا دكتور**»، والتفتُ خلفي فإذا بأحد الأطفال يضـــع الفرشـــاة بمعجونها في فم

كلبه الصــغير محاولاً تســويكه والكلبُ يصــرخ ويولول من سخونة (**الكولجيت**)، فضحكنا طوال المساء.

بالرغم من أنَّ كل قبائل الأورانج أصــلي تعيش في هذه الغابات الموحشــة مما يقتضــى الكثير من العنف والدفاع عن النفس والتكتل لمقاتلة الأعداء أو حتى أعداء الطبيعة إلا أنَّهم لا يعرفون شــيئاً يســمى الحرب ولا يوجد لها إســمٌ في لغتهم. ولذلك كانت آلاتُ القتال عندهم بدائيةً إلى حدٍ كبير. وهم لا يســتخدمونها إلا بالقدر اليســير حيث يصــطادون بها الحيوانات المتوحشة التي تمثل غذاءً رئيسياً لكل سكان الغابة.

ومن آلات القتال لدى ســكان الغابة وجدنا آلةً صــغيرة تسمى البلو بايب Blow Pipe. وهي عبارة عن عصا قوية طولها متران مجوفة من الداخل مثل أعواد القنا بحيث إذا نظر الإنســان من أحد طرفيها رأى بالطرف الآخر الشــيء الذي أمامه وهي عصاً مستقيمة ومتينة. وهناك أعوادٌ رفيعة من نوعٍ آخر من النبات تُســتخدمُ كسـهام توضـع في داخل هذه العصا من أحد طرفيها وهو الطرف ذو الثقب الواســع. ثم ينفخ الإنســان من هذا الطرف فيخرج العود من الجانب الآخر وينطلق بسـرعةٍ وقوةٍ فائقة ليصيب الهدف المطلوب. ورأس هذا العود الصــغير يكون حاداً وقوياً حتى يمكنه من اختراق أي هدف أمامه حتى ولو كان حيواناً كبيراً كالغزال أو القرد. وفي كثيرٍ من الأحيان يُوضـع سُمٌ على رأس السـهم حتى يكون فتاكاً بالحيوانات ذات الجلود الســميكة كالشــمبانزي أو النمر. وهذه العصــا والســهام لا تُســتخدم فقط في صــيد

الحيوانات وإنما هي آلةٌ محببة للمســـابقات والترفيه في أيام اللهو والفرح الجماعى الذي يمارسه أفراد الأورانج أصلي.

رياضة وسط الأحراش

آذنتِ الشـــمسُ بالمغيبِ في دعةٍ و تســـللٍ خلف الغيوم الكثيفة في ذلك المســاء الهادىء من أيام القرية. تداعى أبناء الأورانج أصــلي من أطراف القرية الوادعة إلى ســاحةٍ صـغيرة بالقرب من المصلى. وانقسم الحاضرون إلى فريقين من الشباب والأطفال وبدأوا يلعبون كرة التاكرو Sepak Takraw التي تُعتبرُ الرياضــةَ المحببة لدى شــباب القرية. وما أن بدأ اللعب حتى تأكد للجميع أنَّ هؤلاء الشـــباب يتفوقون على شـــباب الحضـر بما لا يُقارن؛ مهارةً، ورشـاقةً، ودقةً في التصـويب. كان ذلك مصـــدر إعجابٍ لجميع الطلبة الذين تجمهروا حول الميدان يشـــجعون اللاعبين ويعلقون على مهارتهم. وبعد ربع ســـاعةٍ من بداية اللعب انخرط ثلاثةٌ من الطلبة معهم وهم محمد عبد الصـابر، نور الهشـام عبد اللطيف ورمزي بن أحمد في حين ظلّ الآخرون يتفرجون خارج الملعب. لم يكن أبناء المدينة الذين ينعمون بالميادين الراقية والمنافسـات المتصلة ليل نهار أفضل من أبناء الغابة الذين لم يُشـاهدوا تلفازاً ولا اسـتاداً في حياتهم.

كان ذلك المستوى قد أغرانا بأن نُقيمَ منافسـةً رياضية على شـــرف زيارة الملكة التي تبقى لها يومان. وأخبرنا أولئك الشـباب برغبتنا في إقامة منافسـاتٍ بينهم وبين الطلبة فوافقوا

شريطة أن تكون المنافسة فيما بينهم وليس بينهم وبين الطلبة. لم نعترض على ذلك الشرط وأبدينا موافقتنا لأننا كنا نريد مشاركتهم بأي شكلٍ من الأشكال. واتفقنا أن تكون المباراةُ عصراً في يوم مجيء الملكة.

حلاقة الشعر والأرواح الشريرة

من الأشياء اللافتة للانتباه أيضاً أنَّ شعر الفتاة وشعر الرجل في هذه القبيلة يشبهان بعضهما بعضاً. فالكل ينفش شعره حتى يصبح أشبه بشباب الخنافس Beatles الذين ظهروا في أمريكا وأوربا في عقد الستينات متأثرين بأفكار هربرت ماركوس وكنتاجٍ لظاهرة الرفض والفوضى التي عمت المجتمعات الغربية في ذلك الحين. لم يتأثر الأورانج أصلي بهربرت ماركوس ولا غيره وإنما هي طبيعة الحياة البدائية في الغابة التي لم تضع المدنية الحاضرة فيها أي بصماتٍ تفرض على الناس أن يُهذبوا شعورهم أو يذهبو للحلاقين والعطارين. وجميع أفراد الأورانج أصلي نساءً ورجالاً يقصون شعرهم خوفاً من الحشرات والقمل الذي يكثر توالده في الغابة بسبب عدم العناية الصحية. والغريب أنَّ الناس هنا لا يسمحون لأي زائرٍ غريب أن يحلق شعره طالما هو موجودٌ في قريتهم. وإذا أراد أن يحلق فعليه أن يصبر حتى يرحل من القرية. فالناس هنا يتشاءمون أشد التشاؤم من حلاقة الزوار والمسافرين ولا يسمحون بها إلا للأفراد المقيمين بينهم. ورغم سؤالى الملح عن سر هذا التشاؤم من حلاقة الغريب إلا أنهم لم يُعطونى إجابةً شافية. ولكن قال لي حميزار إنَّ هؤلاء الناس يعتقدون أن

حلاقة شعر الغريب تجلب الأرواح الشريرة التي تعني الموت لديهم.

كانتِ الفتياتُ يَضعْنَ على وجوههنَّ كمياتٍ كبيرةً من المساحيق الصارخة التي تُظهر الوجه كلوحةٍ لم يُتقنِ الفنانُ رسمَها وإبداعها. ولما كانت الرطوبة والسخونة هي السمة الغالبة على جو الملايو الاستوائى فتبدو هذه الألوان متسايلةً على الوجه في شكلٍ لا يدعو للاستمتاع بالجمال قدر ما يدعو للرغبة في إشاحة الوجه عن الشخص الذي يضع ذلك المكياج. ولربما كان الحالُ أفضل إذا قللت الفتيات من كمية الألوان والأصباغ التي تُوضع على وجوههن.

شيء آخر لفت انتباه الجميع وهو لبس الحلي وأدوات الزينة الصغيرة المصنوعة من البلاستيك. حيث كانت جميع الفتيات يضعن على رؤوسهنَّ أمشاطاً ودبابيس ذات ألوان مختلفة بغرض الزينة. إلا أنَّ طبيعة شكل الشعر القصير الأجعد المنفوش قد أفقد تلك الأمشاط أي خاصية للجمال كان يتوقعها من وضعوا تلك الأمشاط. حيث كانت تبدو في كثيرٍ من الأحيان كالجسم الغريب الذي وُضع في غير موضعه. ولكن من يدري فلربما كانت لدى أفراد الأورانج أصلي أجمل من كل حلي ومجوهرات الدنيا.

لبست بعضُ الفتياتِ وروداً صناعية وضعنها إما على الملابس أو على رؤوسهن المكشوفة. وقد حرص بعضهن على لبس العقودِ والأختام والأسورة المصنوعة من البلاستيك الذي يكثر في دولة ماليزيا. والبعض قد وضعن تيجاناً من جريد زيت

النخيل على رؤوسهن أثناء تجوالهنّ أمام الضيوف. كل هذا كانت تستخدمه الفتيات الصغيرات السن أما العجائز وما أكثرهنَّ في هذه القرية فلا يرتدين سوى الملابس العادية وكفى، وكأنهنَّ قد زهدن في جذب عيون الناظرين فلم يحفلنَ بالركض خلف الموضة أو الجمال المستحيل.

استمر طوافُنا حول القرية فجئنا إلى أحد البيوت وكانت صاحبته فتاةً صغيرةً في السن وليس لديها غير طفلٍ واحد مما يوحى بأنها قد تزوجت حديثاً. وعلى غير العادة كان هناك كوخٌ صغيرٌ ملحقٌ ببيتها بني على بعد حوالي عشرة أمتار من الغرف الرسمية. وهذا الكوخ بُني من عيدان القصب الجاف التي غطيت ببعض ألواح الزنك والصفيح. كان سقف منزلها قصيراً لا يكاد يساعد على دخول شخص طويل القامة. وقد رصفت أرضية ذلك الكوخ بعيدان القنا الجافة التي شُقت إلى نصفين لتكون في شكلٍ نصف أسطوانى مما يساعد على رصها بعنايةٍ حتى بدت مثل الحصير المفروش على الأرض. وسألت تلك الفتاة ما هذا المبنى؟ فقالت: إنه مطبخٌ لطهى الطعام. قلتُ لها ولماذا لا يوجد في القرية مثل هذا المطبخ؟ لم تُجب الفتاة، وكان يبدو عليها كثيرٌ من الخجل والارتباك. وانبرى أحد الرجال الذين كانوا يرافقوننا من أهل القرية وقال:

«إنَّ هذا المنزل جديد، ولذلك نحرص عندما يكون المنزل جديداً أن يكون بعيداً عن دخان نيران الطعام، لذلك يبنى مثل هذا المطبخ المنفصل والذي سرعان ما يُزال وتبدأ

الحياة العادية كباقي البيوت التي يتم الطبخ فيها في الداخل حالما يبلى المنزل ويكون كباقي بيوت القرية».

كان هذا الحديث قد أشعرني بأنَّ هذا المنزل لابد أن يكون أجمل وأنظف وأكثر ترتيباً من غيره من البيوت التي دخلناها وقادنى الفضول إلى دخوله للتأكد من ذلك الإحساس فاستأذنتُ من الحاضرين وأدخلتُ رأسي من بوابته الصغيرة، لم يكن هناك شيء يميزه عن باقي البيوت الفارغة من كل شيء. لا أثاثات ولا أسرة ولا أوانى في داخله. إلا أنَّ الشيء الوحيد الذي رأيته داخل المنزل هو مرجيحةً صغيرة مصنوعة من عيدان القصب التي رُبطت ببعض الحبال وشُدّت على السقف وسط الغرفة لهدهدة الطفل الرضيع.

لاحظتُ أنَّ شبابيك البيوت لا تُفتح إطلاقاً حيث لا يحب أفراد الأورانج أصلي أن ينظر الإنسان إلى بيوتهم من الداخل. وقلت للعمدة الذي كان يتجول معنا كثيراً مما ساعد أداء مهمتنا التواصلية والتعريفية إننا نعلم أنَّ التلصص على البيوت شيء مرفوض ولا يقبله الدين ولا الذوق ولا الأدب الإنسانى العادي ولكننا شغوفون بمعرفة أنماط الحياة هنا بكل تفاصيلها لأنها أمرٌ غريب على مجتمعاتنا الحاضرة. ودورنا الآن هو دور الباحث عن الحقيقة بكل تفاصيلها ولا يستقيم أمرنا إن لم نقف على حقائق الأشياء بكلياتها وجزئياتها.

فرد عليَّ العمدة قائلاً: «**هذا بالضبط ما يدور الآن في أذهان هؤلاء الناس. وإلا ما سمحوا لكم بالدخول في البيوت**

وما تحدثوا إليكم وما سمحوا لكم بالتصوير الذي لم يعتادوه إلا في مثل هذه الظروف».

كنتُ سعيداً بذلك الرد الذي شجعني على طلب المزيد من الأسئلة والمزيد من دخول البيوت. وكان السؤال: مادامتْ هذه البيوتُ كلُها من الخشب حتى أرضيتها فكيف يطبخ الناس الطعام داخلها؟ ألا يؤدي ذلك إلى اشتعال الحريق فيها؟ وكانت الإجابة عمليةً جداُ حيث أدخلني العمدة أحد البيوت المجاورة وقال أنظر هكذا يكون الطبخ.

كانت هناك كومة كبيرة من الرمال السوداء التي تشبه طين البحر قد وُضعت على سطح الأرضية داخل الغرفة. وفوق هذه الطبقة السميكة من التراب الأسود وضعت عيدان الحطب القصيرة وحولها ثلاثة حجارة هي ما يُسمى بالأثافي، وفوق هذه الأثافي وضع إناء الطعام. وهذه النار تساعد على تدفئة البيت في الليل فضلاً عن مساعدتها في طرد البعوض والحشرات الأخرى التي تكثر في الغابة. والأورانج أصلي يطبخون اللحوم التي يصطادونها من الغابة كما يأكلون السمك والأرز والبيض وغيرها مما يتوفر من طعام. أما الدجاج الذي يكثر حول بيوتهم فإنهم لا يأكلونه إلا في المناسبات فقط. لا يعرف أفراد القرية حياكة الثياب وإنما يشترونها جاهزةً من أسواق القرى القريبة عندما يذهب أحدهم إلى هناك. وهم لا يهتمون باختيار أجودها أو أغلاها وإنما يشترون المعروض منها إذا كان لديهم ثمنه، وإلا فإنهم يلبسون أي شيء يتوفر لديهم من الملابس. وحتى عادة اللبس للثياب تُعتبر عادةً جديدةً ودخيلةً عليهم. حيث كانوا حتى

العقد الماضي يُقطعون لحا بعض الأشجار خصوصاً شجرة إسمها (سوونق) Suong، ويصنعون منه تنوراتٍ صغيرة يلبسونها. وهي لا تستر غير العورة وهم لا يطمعون في أكثر من ذلك.

ساعد في عدم الاهتمام بالملابس أنهم أساساً لا يتأثرون بظروف الطقس الصعبة من برد قارسٍ في الليل وحرٍ شديد في النهار. بل ولا يكترث أحدٌ للأمطار الغزيرة التي كثيراً ما تصادفهم وهم يحتطبون أو يصطادون في الغابات فلا يظهر على أحدهم أي شعور بالفزع أو القلق أو الانزعاج عندما تهطل الأمطار. ولاحظتُ أنَّ البيوت نفسها ليست محكمة الإغلاق من المطر. فسقوفها الخشبية كثيراً ما يتسلل منها الماء على النائمين داخلها وكأنَّ شيئاً لم يكن. ليس أحب إلى أفراد هذه القبيلة من الترحال بين الغابات والتلال الوعرة المسالك. وهذا الترحال يكون طلباً للطعام والماء والأماكن ذات الفائدة لهم. وحيث يجدون أفراداً يريدون الشراء فإنهم يبيعون لهم حطب الحريق وبعض سيقان نبات الراتان Ratan الذي يُستخدم في صناعة الكراسي والترابيز مثل الخيزران. وهو يعتبر الثروة الأساسية للأورانج أصلي، حيث يدر عليهم ربحاً لا بأس به من المال الذي يشترون به بعض التبغ وربما بعض الملابس البسيطة من وقتٍ لآخر. والقطعة الواحدة من نبات الراتان وهي ضخمة الحجم تُباع بمبلغ ستة دولارات ماليزية. وهم يحرصون على بيعها بكميات بدلاً من بيعها واحدةً واحدة. وغالباً ما يبيعونها في ولاية (بيراق) Perak القريبة من ولاية كلنتان، حيث يستأجر تجار منتجات الغابة بعض اللواري الكبيرة من

شركات الترحيل الموجودة في مدينة جيلي Jeli ويحملون عليها هذه الأخشاب إلى أسواق المدن.

هذه الأشــجار تقطع بمناشــير آلية صــغيرة تُعطيها الحكومة بالمجان لأبناء الأورانج أصـلي كمسـاعدة لهم في أداء هذا العمل الكبير حتى تسـاعدهم على الاســتقرار والإنتاج والتأقلم على حياة الحضر. إلا أنَّ هذه المناشير لا تُعطى جزافاً وإنما تكون في عهدة رئيس القرية Tok Batin ويأتيه من يريد القطع فيستلف منه المنشار الذي يريده ثم يعيده بعد الانتهاء من عمله.

الفصل الرابع

الملكة في وسط الأحراش

الفصل الرابع

الملكة في وسط الأحراش

❄❄❄❄❄

كان الجميع منهمكين في الاستعداد لاستقبال الملكة التي قررت أن تزور معسكرنا وتشارك في جانبٍ من فعالياته. وكانت قصة زيارة الملكة قد بدأت عندما زارها موسى نانينا

للمرة الثالثة في قصر السلطان بمدينة كوتا بارو قبل ستة شهور كاملة من مجيئنا وشرح لها طبيعة هذا البرنامج وحاجته للمساعدة. وكانت هي من أوائل المعجبين بالفكرة منذُ إنشائها. وقد تبرعت بالكثير من قبل وها هي تواصل عطاءها السخي الذي أسهم بقدرٍ وافر في نجاح المهمة. وقد ظلت تشجع بحديثها ودفعها ومتابعتها المتواصلة لهذا العمل النبيل الذي نما وترعرع على يديها.

قال لها موسى عندما زارها بالقصر: «**ماذا لو طَمِعْنَا في مشاركتك الشخصية لنا وسط الأحراش علها تكون دافعاً لنا وتغييراً لكِ عن حياة القصر وخروجاً على قيود البروتوكول؟**».

قالت الملكة: «**بالعكس ليس هذا خروج عن البروتوكول بل إنه من صميم عملي، وكم تمنيتُ كثيراً أن أكون بين هؤلاء الناس من الرعية. وإنني شغوفةٌ بالترحال ومعايشة الناس في حياتهم العادية، لذلك أعدكم بأننى سألبى الدعوة وأكون معكم عندما تصلون إلى الغابة**». وتسلمنا في الجامعة خطاباً أنيقاً من قصر السلطان بولاية كلنتان يقول: «**إنَّ الملكة وافقت أن تقوم بزيارة خاصة إلى قرية سونقاي روال لتفقد معسكر الطلاب المقام هناك تلبيةً للدعوة التي تسلمتها من المشاركين في المعسكر وستقضي يوماً كاملاً معهم**».

كان الجميع قد انهمكوا في العمل الدؤوب تعلو وجوههم الابتسامة استعداداً لاستقبال الملكة. هؤلاء ينظفون مكان الاستقبال وأولئك يجلبون الحطب لصنع الطعام

وأولئك يغسلون الأواني وغيرهم يراقبون العمل في نشاطٍ وابتهاج لا يخفى على الناظرين. وفي هذه الأثناء انخرطت (**مُوستُويا**) Mustuyah و(**زمزيري**) Zamziri و(**بولاش**) Polash مع بعض الطلاب في صناعة بعض الأناتيك والزهريات الصغيرة لتزيين المكان.

كانت الزينة التي اختاروها هي الكاتوبات Ketupat وهي عبارة عن أناتيك صغيرة من السعف تُصنع من جريد أشجار زيت النخيل المتوفرة في كل مكان بالغابة بل في كل دولة ماليزيا حتى في الطرق الخلوية خارج المدن. وهذه الأناتيك التي يصنعها الطلاب كثيراً ما توضع في المنازل الماليزية بغرض الزينة أيام الأعياد، ولها أشكالٌ مختلفة يغلب عليها طابع السلال أو حافظات النقود.

وفي زاوية أخرى من الساحة الواسعة جلس بعض الطلاب بينهم (**حميزار**) Hamizar يصنعون تيجاناً من السعف لكي يلبسها الأطفال الذين سيقفون في صفوف استقبال الملكة. وهي تيجان صغيرة تُشبه في نسيجها تيجان الملوك إلا أنها من ورق الأشجار أيضاً. وعندما رأيتُ أكوام الجريد أمام حميزار وهو منهمك في العمل داعبته قائلاً: «**إنك تذكرني بجدتي رحمها الله التي كانت تصنع البُروش والبراتيل والسلال، وكنا نلهو بسعفها حتى تغضب عندما كنا أطفالاً صغاراً في مدينتنا النهود بغرب السودان**».

ضحك حميزار وقال لي: «**وأنت تذكرني الآن بالمهراجا الهندي راج كوماري**» وكان يشير إلى رأسي الذي عندما

تحسستُه وجدتُ أن بعض الطلبة قد غفلوني من الخلف وألبسوني أحد هذه التيجان دون أن أشعر وأخذوا لي صورةً سريعة من الخلف. وقال لي الجميع: «**لقد توجناك لتكون ملك الغابة**». وضحكنا ملياً لتلك الدعابات التي أحسستُ أنها سرت في شراييني كالنسيم العليل، خصوصاً وأنها قد أخرجتنا من تعب العمل الرسمي بالجامعة ومن روتين التعامل داخل المكاتب وقاعات الدراسة.

هذه الروح المرحة تتوفر كثيراً لدى أهل الملايو الذين يحبون المزاح كثيراً عندما تزول الحواجز بينهم وبين من يعايشون. لكن إذا كان الشخص الغريب لم يتعرف عليهم عن قرب ولم يدخل في حياتهم بشكل تلقائي فإنهم يظهرون بمظهر الإنسان المتحفظ الذي لا يتدخل فيما لا يعنيه ولا يجامل ولا يشارك أبداً ولو بكلمة، بل إنهم يظهرون كالساذجين لمن لا يعرف طبيعتهم المرحة الضحوكة.

وصول الموكب الملكي

وصل موكب الملكة في صبيحة الجمعة حيث حضرت مع عددٍ من حاشيتها فصدحت قرية (**سونقاي روال**) وبعدها قرية (**سونقاي بُولو**) Sungai Bulu. التي مرت عليها في طريق العودة. والملكة (**تنكو أنيس**) هي إبنة السلطان (**تنكو عبد الحميد**) Tengko Abdulhamid وزوجة سلطان ولاية كلنتان التي تقع في أقصى الشمال الماليزي متاخمة لولاية فطاني التايلندية.

وحكومة كلانتان التي تقف هذه الملكة وزوجها على رأسها ظلت محكومةً بالشريعة الإسلامية لسنواتٍ طويلة بحكم فوز الحزب الإسلامي فيها بمعظم مقاعد البرلمان الولائي. ووفقاً لنظام الحكم في ماليزيا فإن النظام الفيدرالي هو السائد بين الولايات الثلاث عشرة. وسلطة السلطان هي سيادية ولا يتدخل في الجانب التنفيذي الذي يمارسه مجلس وزراء الولاية. ويقف على رأس هذا المجلس الوزير الأول وهو بمثابة رئيس الوزراء وله حكومة كاملة تتكون من كل الوزارات. ويجتمع الكلُ في المجلس التشريعي الفيدرالي في كوالا لمبور عاصمة الدولة.

وحكومة كلنتان التي تجيئ ملكتها إلينا اليوم في الغابة هي من أقوى الحكومات الولائية في ماليزيا، وجزء من قوتها هو شخصية هذه الملكة نفسها. حيث إنها من أكثر الحادبين على الثقافة الإسلامية ونشرها بين أبناء الملايو، ومن خلال ذلك حرصت على نشر الثقافة العربية التي تحسب أنها الشريان الحقيقي للثقافة الإسلامية، وقد أفصحت عن هذا الرأي مراراً. وظلت على مدى السنوات تشجع وتدعم الحملات التعليمية والدعوية التي يكون قاسمها المشترك بث حضارة الإسلام. وولاية كلنتان على وجه الخصوص لها تقدير خاص للشعب السوداني. مما أغرى دولة ماليزيا برمتها للتعاطف مع السودان. وقد برز ذلك جلياً في تعاملهم الأخوي الكريم مع السودان عندما أشاح الكثيرون بوجوههم عنه متأثرين بالحملة الدعائية الغربية التي سعت إلى تكليس أوصاله وكادت أن تقعده عن المسير طوال النصف الأول من عقد التسعينيات.

تلك الوقفة مع السودان ليست بالأمر الذي يمر مرور الكرام، بل لا بد من الاعتراف بأنه مصدر فخر ومدعاة للتمسك بهذه العلاقة وتطويرها على مدى السنوات. ولماليزيا اعتقاد جازم بأن السودان بلد متفرد وذو أهمية تقتضي تقديره والارتباط به استراتيجياً وفكرياً وعقدياً من أجل المستقبل الأفضل للعلاقات مع الأمم ذات التأثير المحوري.

وبقليل من التأمل يتضح أن علاقة ماليزيا بالسودان لم تقف عند حد المشاركة في استخراج النفط وتسويقه من خلال أكبر شركات النفط الماليزية بتروناس Petronas، وإنما امتدت لتشمل صناعة الأثاث، والتجارة الدولية، والشراكة الذكية، والاستثمار البشري من خلال التعليم العالي. وهذا الأخير ظهر جلياً في إرسال ماليزيا العشرات من أبنائها إلى السودان للتعلم لاسيما الذين يتخصصون في مجالات اللغة العربية والدراسات الإسلامية. وقد امتلأت بهم قاعات الدراسة في جامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة أفريقيا العالمية، ومعهد الخرطوم الدولي للغة العربية. ولما أحس الماليزيون بقيمة التعلم الحقيقي في السودان أصدرت حكومة ولاية كلانتان وهي من أكبر الولايات الماليزية وأهمها من حيث الموقع الاستراتيجي والنظام السياسي قراراً بأن لا تسمح لأيٍ من طلابها للسفر لتعلم اللغة العربية خارج الدولة إلا إذا كان السفر إلى السودان.

ولا شكَّ أنّ لهذا القرار دلالاتٍ كُبرَى ومغزىً عميقاً خصوصاً عندما تتم قراءتُه من خلال تجارب ماليزيا الطويلة مع ابتعاث أبنائها لعدد من الدول الخارجية طَوالَ السنوات.

ولا شك أنَّ مما ساعد في نشاط ولاية كلنتان تجاه هذا النوع من الثقافة وجود عدد من الساسة الحادبين على خلق علاقاتٍ مع الأمة العربية وبينها السودان، ومن هؤلاء الحادبين الملكة تنكو أنيس التي تزورنا اليوم والتي أسهمت مع غيرها في توطيد العلاقات التعليمية مع السودان.

وهي أيضاً عُرفتْ بأنها مشغولةٌ طوال الوقت بأمر الثقافة الإسلامية الذي يمثل هماً استراتيجياً وحضاريا بماليزيا وسط الصراع الخفي للحضارات. ذلك الصراع الذي أرَّقَ الدولة وكيانها وسط تيارات الصراع المتعددة التي أطلَّتْ برأسها كثيراً في جنوب شرق آسيا، حيث تزايد تهديد المخاوف مراتٍ عديدة، خصوصاً بعدما حدث في تيمور الشرقية على مرأىً ومَسمَعٍ من العالم.

وتيمور ليست بعيدة عن الأرخبيل الملايوي الذي بدأت تتجه إليه أنظار الغرب بكثير من الريبة والحذر خلال السنوات الأخيرة من حكم رئيس الوزراء السابق (**د. محاضير محمد**). ولا شك أن مجيء السيد (**عبد الله أحمد بدوي**) لرئاسة حزب أمنو الحاكم ورئاسة الحكومة بحكم الأغلبية الميكانيكية لمقاعد الحزب بالبرلمان قد هدَّأ إلى حدٍ كبير خواطر الغرب والمنظمات التي تخشى من القوة في شخصية محاضير، إلا أنهم سرعان ما تأكدوا أن ماليزيا دولة مؤسسات لا يتحكم فيها فرد وإنما تحكمها المبادئ والثوابت.

كان حضور الملكة وحاشيتها في الساعة 10 50 صباحاً. وكانت مراسم استقبالها في غاية البساطة حسب طبيعة المكان

وظروف الزيارة نفسها، رغم أننا أمضينا الليل بطولِه نَفرش مقر إقامتها بالسجاد الملون، ونزين الجدران بصور العائلة المالكة في زيها الملكي ذى اللون الأصفر الذي هو لون كل العائلات المالكة في ماليزيا.

كنا قد استجلبنا هذه الصور خصيصاً من قصر السلطان بكوتا بارو لتكون عُهدةً لدينا ونعيدها بعد انتهاء الزيارة. ووضعنا عدداً من كراسي الجلوس الأنيقة التي تتوسطها مائدةٌ مستطيلة من الرخام الطبيعي المُحَلَّى بقطع الأبنوس وأعواد الصندل. وبدا منزل الأستاذ رملي على بساطته كقصرٍ حفته الرياحينُ والورود من كل مكان.

نزلت الملكة من سيارتها الفارهة ذات اللون الأسود وألبسها الأطفالُ عقداً من الزهور، ثم بعد ذلك صافحناها فرداً فرداً وأدخلناها في غرفة الأستاذ رملي بن أوانج التي أعددناها إعداداً خاصاً عله يليق بالمقام الملكي. رغم أني لا أحسب أنَّ ملكاً قد دخل مثل هذه الأكواخ في حياته كما لا أحسب أن رملي بن أوانج كان يحلم في حياته أن يحوي كوخه الصغير إنساناً في مقام الملوك، ولكنها مشيئة الأقدار التي تفعلُ ما تريد. تفرستُ في ملامح الملكة فوجدتها ذكيةً ومتواضعة إلى أبعد الحدود. وكانت تحرص على الاصطنات الجيد لكل من يتحدث وتنظر إليه حتى يكمل حديثه كاملاً ثم ترد إما بعبارت الاستحسان أو المجاملات التي يقتضيها المقام. وبسرعةٍ فائقة تأقلم الحاضرون معها.

كان من ضمن أعضاء الوفد الذي جاء مع الملكة النائبة البرلمانية الشهيرة (**حاجة إيلاني**) Hajjah Ilani بنت (**داتو حاج إسحق**.Dato Isak) وهي عضو برلمان بولاية كلانتان وممثلة الولاية في البرلمان الفيدرالى الماليزي بكوالالمبور. وحاجة إيلاني تعتبر أقوى السيدات الماليزيات على الإطلاق اللائى دخلنَ معترك السياسة. وهي كذلك واحدةٌ من أخطر زعماء حزب سِمانجات Semangat46 وهو الحزب الذي إنشق من حزب أمنو الحاكم عندما ادّعى جناحٌ من أعضاء المنظمة الوطنية الملايوية للاستقلال أنَّ حزبهم أمنو (UMNO) قد غير طبيعة الأهداف المعلنة آنذاك.

كانت تلك الأهداف تتمثل في نهضة الفكر السياسى للحزب على مبادىء المواطنين الأصليين من الملايويين وهم الذين يُطلقُ عليهم (**أبناء الأرض**) Bumiputra. ولذلك كانوا يرفضون أن يقوم المنهج السياسي للحزب على أهداف الأقليات أو الأعراق الأخرى من ذوي الأصول الصينية أو الهندية. وعندما اشتد الخلاف بين طرفى الحزب إنشق الطرف المعارض وكون حزباً مستقلاً وقف في جانب المعارضة في عام 1946م مما جعلهم يسمون الحزبُ حزب سمانجات 46 وأحياناً يُطلق عليه حزب 46. فوجئتُ بوجود حاجة إيلاني ضمن وفد الملكة وهي المرأة التي قرأنا عنها كثيراً وشهدنا مواقفها على شاشات التلفزيون تصادم من أجل الدولة ونهضة الوطنيين. وبمثل صولاتها في المحافل العامة بدأت تتجول بين الأكواخ وتسأل عن كل كبيرةٍ وصغيرة. وكانت في كل اللحظات تداعب الأطفال الذين تحلقوا حولنا منذ الصباح الباكر.

وعندما كانت الملكة تتناول فنجان قهوتها وتتحدث مع بنقهولو مات دين تقدم موسى من حاجة إيلاني وقال لها: «**أعرفك بدكتور عوض إبراهيم عوض مشرف هذا البرنامج، وهو من السودان ويعمل أستاذاً للإعلام بالجامعة الإسلامية العالمية**».

وعلى الفور صافحتني حاجة إيلاني مرةً ثانية وقالت لي: «**في الواقع إنَّ هذا العمل الذي تقومون به الآن لا يقل عن دور الفاتحين والمبشرين القدامي الذين جاءوا إلى هذه البقاع في القرن الخامس الميلادي حاملين نور الدعوة والمحبة والتوحيد للناس، فسيروا على بركة الله**».

كان حديث الحاجة إيلاني هذا مشجعاً لي إلى أبعد الحدود، وقد أشعل الحماس في نفسي ونفوس كل المشاركين في المعسكر. وقال لها جافيد أحسن: «**إننا نشعر بأنَّ مسئوليتنا قد ازدادت بزيارتكم إلينا في هذا الصباح الجميل. ونتمنى أن تتحقق أهدافنا بانخراط هؤلاء الشباب في حياة المدينة على هدى من نور الدين والمدنية الحاضرة التي عمت كل بقاع ماليزيا والقائمة على أساس الفكر والعقيدة المبرأة من عيوب الكفر والجهل والتخلف**». أغراني الظُرف والتواضع الذي لمسته في حاجة إيلاني أن أخوض معها في بعض الأُنس خصوصاً وأن الملكة كانت منهمكةً مع حديث الأهالي الذين أحاطوا بها لفترةٍ طويلة. وبالفعل تحدثتُ معها عن دورها كنائبة برلمانية غيرت مثار العمل السياسي رغم مناكفاتها العديدة لرئيس الوزراء الدكتور محاضير محمد. وكأنما وجدتها فرصةً سانحة لتعبر لي عن إعجابها الشديد بشخصية الدكتور

محاضير. وقالت إنها تحترم شخصيته ودهاءه السياسي في قيادة الدولة لأنه الزعيم المسلم الوحيد الذي لقن الغرب دروساً في أخلاق التعامل مع الأمم الأخرى.

انتهزتُ تلك الفرصة لأخبرها بأنني أقوم بترجمة الكتاب الذي كتبه عنه صديقه القديم (**زين الدين مايدين**) Zainudin Maydin والذي كان مرشحاً لمنصب وزاريٍ رفيع بعد أن قضى أكثر من عقدين من الزمان في رئاسة تحرير مجموعة أوتوسان ملايو الصحفية.

قالت لي حاجة إيلاني: «**إن هذا الكتاب رغم أنه صدر منذ سنواتٍ طويلة إلا أنه جدير بالوقوف عنده، ليس لأنه في غاية المتعة والجاذبية فحسب وإنما لأنه يتحدث عن شخصية أثارت جدلاً سياسياً واسعاً في كل المحافل الدولية**».

وقلتُ لها: «**حقاً إن دكتور محاضير شخصية جديرة بالوقوف عندها خصوصاً وأنه يسعى للتنحي من منصبه ليترك موقعه لنائبه عبد الله أحمد بدوي الذي سينوب عنه في الغالب نجيب تون عبد الرزاق وزير الدفاع**». قالت حاجة إيلاني: «**إن الفراغ الذي سيتركه محاضير سيكون عريضاً بكل المقاييس، ليس لماليزيا وحدها وإنما لكل مجموعة النمور الآسيوية التي وجدت فيه ضالتها طوال سنوات المجابهة للاستكبار الإمبريالي إبان سنوات الصراع مع المنظومة الاقتصادية الغربية بقيادة سورس وأعوانه من ديناصورات الاقتصاد الرأسمالي. وسيكون عريضاً بالنسبة للأمة**

الإسلامية قاطبة في ظل الاستقطاب الذي يطل برأسه كل حين».

شعرتُ بأن فكر الحاجة إيلاني قريبٌ جداً مما كان يجول بخاطري عن تقويم السياسة الماليزية رغماً عن وقوفها في المعارضة لسنواتٍ طويلة، ولذلك تشجعتُ وقلتُ لها: «**لن يستطيع كائنٌ مَنْ كان من أعضاء حزب أمنو أن يملأ الفراغ الذي سيسببه خروج محاضير من سدة الزعامة، فهو من شاكلة القواد المتفردين في تحريك خيوط اللعبة داخلياً وخارجياً. وقد أثبت ذلك حتى في مجال الاقتصاد من خلال نظرياته العديدة وكتاباته القيمة، وكذلك الشأن في مسألة السلام الاجتماعي**».

أمنَّت النائبة البرلمانية القديرة حاجة إيلاني على كل حرفٍ قلناه في هذه الجلسة القصيرة التي صنعتها الصدف. وقرأتُ في وجهها تقديرها الكبير لوطنها ولشخصية الدكتور محاضير الذي برز بالفعل في بلاده كأخطر القادة الآسيويين الذين لم ينازعهم في التفرد إلا لي كوان يو الذي حكم سنغافورة لأطول فترة في تاريخ الزعامة الآسيوية قبل أن يتنحى بطوع إرادته في أواخر عقد التسعينيات من القرن العشرين المنصرم. ومن الواضح أن شخصية محاضير كانت لغزاً محيراً للشرق والغرب من خلال مواقفه القوية وآرائه الجريئة التي قرنها دائماً بالأفعال. ولن يستطيع أحد أن يدَّعي معرفته بسر الطريقة التي جمع فيها محاضير بين الطب والسياسة والرؤى الفكرية والدينية التي لقن من خلالها الغرب

دروســـاً في أخلاقيات التعامل، مما جعله مثار جدل واســـع في الأوساط العالمية.

ومن ذلك رسالته التي وجهها للحكومات الغربية قاطبة من خلال ندوة أوكسـفورد بالمملكة المتحدة التي شـارك فيها بدعوة من الأمير (**تشـارلس**) ولي عهد بريطانيا ووالده (**دوق أدنبرة**) والتي اختار لها عنواناً مثيراً للجدل هو: (**الإسلام الذي أسـيء فهمه**). ورغم أنه قد بدأ حديثه بقوله إنه ليس عالما أو متخصصـا في الدراسـات الإسـلامية إلا أنه قد لمس كبد الحقيقة من أكثر جوانبها إيلاماً. ووجه اتهامه المباشر لصناع المشكلة الحقيقيين الذين ظلوا يتهمون كل مسلم بالخيانة.

وجاءت كلمته صـرخةً في وجه الظلم والغُبن الذي لحق بأمة الإسـلام من خلال ظلم الغرب. وكانت دعوته صـريحة وواضـحة لقادة وعلماء المسـلمين أن (وَحِّدوا صـفوفنا ولا تفرقوها). ولعلَّ المسـلمين أحوج ما يكونون لمثل هؤلاء القادة الذين لا يخشـون لومة لائم في قول الحق ويضـعون الحصـان أمام العربة وليس خلفها. وهم محتاجون لتطبيق ما يعتقدون وليس ما يُمْلَى عليهم تحت وطأة الخنوع الذي لم يعرف طريقاً لقلب محاضير طوال حياته السـياسـية. وباختصـار فإن الأمة المسـلمة محتاجة لشـخصـية في وزنه لمجابهة العالم المتقلب والمتكبر والسـريع الإيقاع قبل أن تعصـف رياح العولمة بما تبقى من الأمم التي تقول الحق ولا شيء سِواه. أحسستُ بأنني أخذتُ وقتاً أطول من اللازم من حاجة إيلاني التي يريد الجميعُ أن يتحدثوا معها فودعتها وتحركتُ من المكان لأفسـحه لغيري، خصـوصـاً وأن الملكة تنكو أنيس ما زالت تجلس مع مسـتقبليها

بمنزل الأستاذ رملي الذي تحول بفضل الظروف إلى ما يشبه البرلمان أو قصر الرئاسة.

خَرجتُ من هناك إلى مكان الاحتفال حيث وجدتُ (**داتو د. عارفين بن سحيمي**) Dato Dr. Arifin Bin Suhaimi نائب مدير الجامعة الإسلامية العالمية لشئون الطلاب والذي ظلَّ يرعى هذا البرنامج منذ بدايته ويسافر مع الطلاب بين الأدغال. وكان قد وعدنا بأنه سيأتي إلينا لاستقبال الملكة وها هو يفعل.

حيّيته وأعطيته تقريراً مقتضباً عن أحوال الطلاب ونجاح الجولة التي قمنا بها قبل مجيء الملكة. وأثناء وقوفنا خرجت الملكة من الغرفة فحياها بحرارة وأخذ مكانه على يسارها في المجلس الذي أعددناه خارج الغرفة لنقدم فيه بعض العروض الترفيهية تحيةً لهذه المناسبة.

جلستِ الملكة وكان على يمينها شيخ القرية بنقهولو مات دين الذي لبس في هذا الصباح منطالاً أسود وقميصاً أصفر وطربوشاً أسود على رأسه على عادة الماليزيين الذين تعودوا على لبسه في أيام الأعياد خصوصاً عيد الفطر وعيد الأضحى. كما أنهم يلبسونه عند الذهاب إلى المساجد لأداء الصلوات. وبالقرب من العمدة مات دين جلست فتاةٌ من الأورانج أصلي فارعة الطول بشكلٍ واضح. وهي بذلك قد تميزت عن رفيقاتها، وقد تملكني الفضول أثناء المصافحة التي قام بها بعضهم للملكة فالتفت لجاري في المجلس وهو الأستاذ رملي بن أوانج وسألته: «**مَن هذه الفتاة؟**»، فقال لي الأستاذ

رملي: «**إنها زعيمة النســـاء هنا، وهي المتحدثة باسمهن والمشاركة في كل أمرٍ يخص نساء الأورانج أصلي**». قلتُ له: «**إذن إنها فتاةٌ متعلمة بلا شك**». فأجاب بالنفي، وسرعان ما قاطعته بقولي: «**لكنَّ هندامها يبدو جميلاً ومتميزاً عن كل نساء القرية!**».

قال رملي: «**إنها واحدةٌ منهن وهي أمية كســائر أهل القرية وليس لها أي صــفات تؤهلها للقيادة غير هذا الطول الفارع والقوام المشــوق الذي ميزها عن الأخريات**». قلتُ له: «**وهل الطول الفارع من مؤهلات القيادة في هذه القبيلة؟**» قال: «**في الواقع إنَّ الناس هنا أبسط مما تتصورون ومؤهلات القيادة عندهم لا تعدو أن تكون شــكليةً ولا علاقة لها بالمؤهلات الحقيقية، وحتماً أن هذه الفتاة اختيرت لطولها وليس لشئ آخر يميزها عن رفيقاتها. وهكذا تسير كثيرٌ من الأمور هاهُنا. وحتى زعيم القبيلة نفسه لا يتم اختياره إلا وفقاً لمعيارٍ واحد فقط هو إجادته للغة الملايوية التي هي لغة الدولة الرسمية ولا حاجة إلى أي مؤهلات أخرى. وإذا مات يمكن أن يرثه أحد أبنائه في هذا المنصــب شــريطة أن يجيد اللغة الملايوية هو الآخر**». قلتُ له: «**حقاً إنَّ أمر هؤلاء الناس عجيب ولذلك لا بد من ســبر أغوارهم وإدراك تاريخهم وأخبارهم**». في تلك اللحظة كان حميزار قد أطلق صــفارة البداية لبرامج الاحتفال بمقدم الملكة تنكو أنيس. فبدأت الطالباتُ في الحال يُوزِعْنَ العصير والحلويات على الضيوف. وكانت صناديق الطعام التي أعددناها من الكثرة بحيث تُشبع عدداً من القرى المجاورة لو جاء أهلها إلينا، إلا أن موكب الملكة قد حمل إلينا

مزيداً من المأكولات والمشروبات الفاخرة التي قدمناها هديةً لأهل القرية احتفاءً بهذا اليوم السعيد.

بدأ البرنامج الرسمي فتحدث عددٌ من الحاضرين أمام الملكة التي لم تقدم كلمة بل اكتفت بالتصفيق. وكان جميع المتحدثين قد رحبوا بمقدمها وأشادوا بطلاب المعسكر الذين أتاحوا لهم هذه السانحة التي قد لا تتكرر. وكانت أكثر الكلمات تعبيراً وهي الأطول في برنامج الاحتفال هي كلمة الأستاذ (**داتو د. عارفين بن سحيمي**) نائب مدير الجامعة الإسلامية العالمية لشئون الطلاب وراعي البرنامج. حيث انتهزها فرصةً لتقديم الشكر للملكة على تفضلها بتبني برامج الطلاب وعطائها السخي الذي لولاه لما تحققت العديد من الأفكار.

وبعد ذلك أسهب في حديثه عن جهود الشباب في تغيير وجه الحياة بين غابات الملايو، وعن دور الجامعة الإسلامية في خلق قنواتٍ للتواصل مع كل بقاع العالم بحكم أنها تُؤوي طلاباً من تسعين جنسيةً حول العالم بينها دول غير مسلمة. وقال في معرض حديثه عن البرنامج:

«**ليس هناك أجمل من أن نرى كل هذه السحنات التي قدمت إلينا من أفريقيا وأوربا وآسيا وأستراليا لتخلق جواً من البهاء والتطور والازدهار بين ربوع بلادنا التي جمعت الشتات وألفت بين قلوب الباحثين عن الألفة ونشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف**». بذلك انتهت الكلمات وكان الجميع سُعداء بهذا اليوم الجميل.

طواف بين الأكواخ

بعد انتهاء الكلمات تحركت الملكة ومرافقوها للطواف على بيوت القرية، وطلب مني داتو عارفين أن أصحبها في هذا الطواف. وخرجنا على البيوت واحداً تلو الآخر، حيث أصرت الملكة على دخول بعضها للتعرف على حياة الناس على الطبيعة. ولم يصدق أهل القرية أنَّ الملكة بنفسها تتحدث إليهم داخل أكواخهم في هذا اليوم السعيد، خصوصاً وأنها كانت تسأل عن كل شيء رأته أمامها. وظلَّ سؤالها متصلاً لجميع من قابلتهم عن ظروفهم وأحوالهم المعيشية وطبيعة الحياة في الأحراش.

كان الجميع يجيبون بأنهم بخير وليست لديهم أي مشاكل ولا مطالب. ولم يفصح أحدٌ عن احتياجاتٍ للقرية ولا تحدث أحدٌ عن شحٍ في الخدمات أو ما شابَهَ ذلك. بعد ذلك قالت الملكة إنها تريدُ زيارة مدرسة القرية فتوجه الجميعُ نحوها.

كُتِبَ على لافتة المدرسة Sekolah Kebangsaan وهذا هو اسمها. ودخلناها ضمن الحاشية فوجدنا بها فصلين صغيرين، وقد بُنيتْ من الأخشاب والطوب بغرض إغراء الأهالي بالاستقرار وإدخال أبنائهم فيها. أما الأبواب والشبابيك فقد غُطيتْ بنوعٍ خاص من النمليات السميكة التي تتيح دخول الهواء والضوء وتمنع دخول الحشرات والحيوانات إلى داخل الفصول. أما سقف المدرسة فقد بُنِيَ من الزنك السميك

وغُطي من الداخل بخشبٍ أبيض جميل المنظر. وهو مثل كل البيوت في دولة ماليزيا وما جاورها شديد الانحدار بسبب الأمطار الغزيرة التي تهطل في معظم شهور السنة.

وفي داخل الفصول وُضعت العديد من الأدراج ومعها الكراسي الصغيرة التي يجلس عليها التلاميذ أثناء الدراسة. وعلى الحائط الأمامي للفصل ثُبتت سبورةٌ خضراء اللون ودولابٌ صغير لحفظ كراسات التلاميذ والكتب والأقلام. وأثناء تفحصي للأدوات المدرسية وجدت عدداً من كراسات وكتب التلاميذ موضوعةً داخل الدولاب فسألتُ الأستاذ رملي: «**لماذا لا يأخذ التلاميذ كتبهم وكراساتهم معهم إلى البيوت؟**»

فضحك وقال لي: «**إننا لا نسمح للتلاميذ بأخذ كراساتهم أو كتبهم إلى البيوت، ذلك لأنها ببساطة لن تعود مرةً أخرى إذا دخلت تلك البيوت. فالناس هنا لا يعرفون قيمة الكتاب أو الكراسة. وفي الحالات النادرة جداً التي حمل فيها التلاميذ كراساتهم كانت طُعماً جميلاً لإيقاد النار في الصباح وبعضها كان لُعبةً ظريفةً للأطفال الذين لم يُصدقوا أنها قد جاءت إليهم في عقر دارهم. ومن يومها والكراسات حبيسة الفصول يكتب الطلاب الدرس ويحلون التمارين ويخرجون كما دخلوا**». والملاحظ أنَّ التلاميذ هنا ليس لهم زي مدرسي موحد بل يلبس كل واحدٍ ما يشاء أو ما يملك. والسبب في ذلك هو عدم إدخالهم في أي التزاماتٍ أو أعباءٍ محرجة قد تقودهم إلى ترك المدرسة، خصوصاً وأنهم لم يجيئوا للمدرسة إلا بعد عناءٍ وجهدٍ مضنيين. وأضاف الأستاذ

رملي قائلاً: «**بصراحة لولا هذه الحلوى والأطعمة التي نقدمها للتلاميذ لما جاء أحدٌ إلى المدرسة. وهذا شيء طبيعى، وقد عملنا له ألف حساب. والآن نعتبر الطباخ الذي يقيم بالمدرسة أهم شخص فيها إذا غاب العلم والمتعلمون. ونطمع أن تشتد رغبة الأهالي مع مرور الوقت حتى يتفهموا قيمة العلم وقيمة المدرسة وقيمة الاستقرار ويرسلوا إلينا بأطفالهم الذين لا نشترط فيهم عمراً محدداً**».

سباق الغابة والمدينة

في المساء انتقلنا جميعاً للميدان الواقع في طرف القرية الجنوبي. حيث نظمنا مع أهل القرية سباقاً للرماية والتصويب بآلة البلو بايب، واتفقنا أن يكون السباق بين أهل القرية والقادمين من المدينة من طلاب المعسكر ووفد الملكة. وقال سكان القرية الذين بدا أنَّ ثقتهم كانت كبيرة في مقدرتهم ومهارتهم: «**إذا انتصرتم علينا سنهدى لكم هذه الآلات جميعاً لتنقلوها معكم إلى بيوتكم وأسركم في المدينة**». قلنا لهم وإذا هزمناكم فسنعطيكم كل المال الذي في جيوبنا. ضحكوا جميعاً وقالوا: «**احتفظوا بمالكم فنحن لا نحفل بالمال ولا نحتاج إليه**». بدأنا المسابقة التي كانت تمثل أكبر احتفالات القرية التي أقيمت على الطبيعة. جاء شباب الأورانج أصلي يحملون عدداً ضخماً من هذه العصى المجوفة Blaw Pipe حيث جاء كل فردٍ يحمل معه عدداً منها. ووقف ثمانية أفرادٍ من صناديد القبيلة يحملون عصيهم وسهامهم. وكان

شكل المسابقة أن وضعنا لهم عدداً من البالونات الملونة كهدف يُصوب عليه الرماة. ورُبطت هذه البالونات في ثماني مجموعات بكل مجموعة ثلاث بالونات ورُبطت على حبلٍ طويل شُدَّ بين شجرتين أمام الحاضرين حيث كان أمام كل متسابق مجموعة واحدة على بُعد مائة متر.

أطلق (**جافيد**) Javeed وهو الذي يجيد معظم أنواع الرياضة صفارة البداية فوضع كل واحدٍ من المتسابقين طرف العصا أمام فمه ونفخ الجميع من خلال ثقب العصا فانطلقت السهام القوية متجهةً نحو البالونات. وفي أقل من لمح البصر كانت هناك بالونةٌ واحدة قد تفجرت من كل مجموعة. وعقدت الدهشة ألسنتنا من مهارة هؤلاء البشر في إطلاق السهام. فالبالونات قد وُضعت على بُعدٍ شديد منهم وكانت الرياح تهب بشدة مما لا يمكن معه تثبيت أي واحدة من هذه البالونات. ثم بعد ذلك جاء دورنا وكنا نحسب أنَّ المسألة في غاية البساطة نسبةً للنتائج الباهرة التي رأيناها أمامنا. ووقفنا جميعاً أمام جمهور الحاضرين.

كنا ثمانيةً من الضيوف وطلبة الجامعة الإسلامية وغيرهم من الذين جاءوا من كوالا لمبور. وقفنا جميعاً في خطٍ مستقيم وأُطلقت صفارة البداية فانفجر الجميع ضاحكين لدرجة البكاء حيث لم ينطلق سهمٌ واحد لأكثر من مترين ونصف أو ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. وضحكنا جميعاً للهزيمة التي علمتنا أنَّ الكل في هذا الوجود مُيَسَرٌ لما خُلِقَ له. وكانت أسخن مباراةٍ تشهدها هذه الغابة العذراء طوال عمرها. ولأول مرةٍ في تاريخ الغابة يدوى التصفيق على جنبات تلك

الساحة المُخْضَرَّة، وهو ليس تصفيقاً عادياً وإنما تصفيقٌ تقوده الملكة وحاشيتُها. وأمضينا ساعتين من الزمان في متابعة اللعب لأنَّ العرض كان قوياً ومثيراً لدرجة الإمتاع، وظهرت البهجة والسرور على كل الوجوه التي أنهكها عراك الوحوش بين الأدغال على مر السنين.

بعد ذلك دخل إلى ميدان الاحتفال عددٌ من شباب الأورانج أصلي الذين كونوا فريقين متنافسين لكرة التاكرو. وقد جاءوا ليقدموا عرضهم الحى أمام الملكة والوفد المرافق لها وجمهور أهل القرية الذين خرجوا على بكرة أبيهم في ذلك اليوم السعيد. ولم يكن لأعضاء الفريقين زي يميزهم وإنما كان الكل يلبس ملابسه العادية. وكان لا بد لنا أن نفرق بينهم وهنا أشار موسى أن نربط شريطاً على رأس كل لاعب، بحيث يكون اللون الأبيض للفريق الأول واللون الأحمر للفريق الثانى. وأحضرنا قماشاً قديماً وقطعناه إلى شرائح متوسطة العرض والطول وربطناها على رؤوس المتسابقين.

وبدأت المباراة التي كانت ساخنةً بكل مقاييس التنافس. حيث كانت كمباراة البلو بايب التي سبقتها والتي ظهرت من خلالها مهارات اللاعبين في هذه الرياضة الممتعة. وشيئاً فشيئاً كانت الشمس تؤذن بالرحيل خلف التلال الزرقاء التي حجبت بعضها غيوم السماء الكثيفة. فأشار موسى للجميع أن يتوقفوا عن اللعب حتى لا يسرقنا الوقت حيث إنَّ لدينا جزءاً آخر من الاحتفال هو تقسيم الجوائز للمتسابقين وهو سيكون أمامَ المصلى. وتوقف الجميع وتحركنا نحو ساحة المصلى وسط التعليقات والقفشات الضاحكة بين المتسابقين. وبدأت مراسم

توزيع الهدايا والجوائز على الشبان والشابات المشاركين في برنامج الزيارة.

قدمت الملكة بعض الهدايا الرمزية للفائزين وهي عبارة عن ملابس ومأكولات وبعض الأدوات الرياضية التي تساعدهم في تنمية مهاراتهم وقدراتهم مستقبلاً. وقد جاءت هذه الهدايا من قصر السلطان كهدية للبرنامج وتشجيعاً للطلبة ولأهل الغابة حتى ينخرطوا في البرامج التي نقوم بها. تلا حميزار مقدم البرنامج أسماء الفائزين في المسابقات الذين وقفوا في صفٍ طويل وتقدموا واحداً تلو الآخر لتسلم الهدية من يد الملكة.

وكعادة أهل الملايو لا تصافح الملكة الرجال وإنما يكتفى أحدهم بالانحناء قليلاً عندما يقف أمامها ثم يتسلم جائزته ويرجع خطواتٍ للوراء موجهاً وجهه نحو المنصة الرئيسية ثم ينصرف. وسألتُ أحد اللاعبين واسمه (**ميزار**) Mizar عن سر هذه المهارة التي كانوا يلعبون بها طوال ساعات المباراة فقال:

«**إننا نمارس هذه الرياضة منذ أن خُلقنا وليس لدينا شيء غيرها نفعله في أوقات فراغنا الطويلة ولذلك كان لا بد من إتقاننا لها**». سألته: «**ومن أين جاءتكم هذه اللعبة؟**» قال: «**في الواقع كانت أول كرة تاكرو قد دخلت هذه الغابة كهدية من مكتب رعاية شئون الأورانج أصلي بمدينة جيلي، وقد أتى بها رئيس المكتب وأعطاها لبعض شباب القرية الذين وجدهم حائرين فيما يفعلون، وبدأنا نلعب بها حتى أصبحت السلوى الوحيدة لكل السكان الذين يمارسونها بشكلٍ يومي**». وأمسكتُ

بإحدى هذه الكرات أتفحصها فوجدتها مصنوعةً من نبات الراتان Rattan الذي ينمو بكثرة في هذه الغابة وهو ناعم الملمس ولونه يميل إلى الصُفرة.

انقضت ساعات ذلك اليوم الجميل، واصطف الجميعُ على جانبي الطريق لوداع الملكة وركبها الميمون. ووسط التصفيق والتهليل والتحايا الحارة غادرت الملكة تنكو أنيس قرية سونقاي روال بعد أجمل يومٍ حافلٍ وصاخب في حياة هذه الغابة الهادئة.

وبعد خروج الموكب الملكي عاد الجميع ليواصلوا احتفالهم الذي تمنوا ألا ينتهي. وقد وُزعت على الأطفال عند مغادرة الملكة أعلامٌ صغيرة لدولة ماليزيا بألوانه الزاهية وخطوطه البيضاء والحمراء التي وضعت بالتساوى وفي ركنه الأعلى من اليسار وُضع مستطيلٌ صغير أزرق اللون في وسطه صورةٌ للهلال يحتضنُ نجمةً من ثلاثة عشر رأساً يرمز كل واحدٍ منها لإحدى الولايات الماليزية. وكلا الهلال والنجمة باللون الأصفر وهو لون العائلات المالكة في ماليزيا. أخذه الأطفال وبدأوا يلوحون به لزوار الغابة الذين جاءوا كالحلم الجميل يبددون وحشة الليل وعنفوان النهار.

بعد رحيل الملكة بدأت أسطر ما تم خلال هذا اليوم، وكان أكثر ما لفت انتباهي كثافة الوجود النسائي في هذا اليوم على غير العادة. حتى أن كثيراً منهنَّ قد حضرن المنافسة الرياضية التي راقبنها بكثير من الابتهاج والتشجيع للاعبين رغم أنهن كُنَّ على مبعدةٍ نسبية. وقد التفت البناتُ حول الملعب الصغير

وكنّ يراقبن اللاعبين بفرح غامر. وبعضهنّ كنَّ يراقبن اللعب من عتبات الأكواخ القريبة من المكان. ولاحظتُ في هذه المرة أنَّ النساء قد ربطنَ أطفالهنَّ الرُضع بقطعةٍ من القماش على ظهورهنَّ. واستغربتُ أنَّ هذا الأسلوب بحذافيره هو الذي يمارسه نساء القبائل القاطنة في غرب ووسط أفريقيا خصوصاً نساء الهوسا والفولانى والزغاوة والفور والمساليت.

ليس هناك أي اختلافٍ في أسلوب الربط ولا في أسلوب وضع الطفل الذي يُبطح على ظهر الأم ثم يُلف بالثوب حول جسده ما عدا الوجه ليُربط الثوب من الأمام حيث يكون الطفل مسترخياً إلى أبعد الحدود في هذه الحالة لذلك غالباً ما نجده مستغرقاً في النوم العميق طوال تحرك الأم. وتذكرتُ أنَّ بعض الأطباء الغربيين قد ذكروا أنَّ هذا الأسلوب يساعد في رشاقة القوام للأمهات اللائى يربطن أطفالهنَّ بهذا الشكل، كما أنه يساعد على نمو عضلات الطفل بشكلٍ قوىٍ ومتين.

بعد قليلٍ من انتهاء ذلك الكرنفال عاد الجميع إلى أكواخهم بعد أن كان الإعياء قد أخذ من الجميع مأخذه بعد يوم حافلٍ من أيام القرية. وحملتُ أوراقى وعدتُ إلى المُصلى متأملاً في ذلك الكنز الذي خرجتُ به من حصيلة هذا اليوم الفريد. وأثناء كتابتي للمذكرات دخلَ عليَّ موسى وقال لي: «**ما رأيك في هذا اليوم؟**» فقلتُ له: «**إنني أسعد الناس في هذا اليوم لأنني سأثري مذكراتي بمعلوماتٍ غزيرة**». فقال لي: «**ليس هذا فحسب وإنما سأحكي لك عندما يهدأ هذا المكان قصتي التي وعدتك بها في أول يوم دعوتك فيه للمشاركة في هذا البرنامج، هل نسيتَ ذلك الوعد؟**»

قلتُ له: «**وكيف أنساه يا موسى وأنا ما زلتُ أنتظرك بفارغ الصبر منذ أن جئنا إلى هذه الغابة؟**». فقال لي: «**إذن نحن على موعد الليلة، وسأكون معك طوال المساء بإذن الله**».

❀ ❀ ❀

الفصل الخامس

❄❄❄❄❄

حكاية بعد منتصف الليل

الفصل الخامس

حكايةُ بعدَ مُنتصفِ الليل

❄❄❄❄❄

سكن الليلُ، ونام كلُ أفرادِ المعسكرِ من تعب الرحيل. ولمْ يبقَ إلا أنا وموسى لم تغمُض لنا عيونْ. حيث كان موسى يطوف حول الجميع متفقداً إياهم وساهراً على كل أفراد المعسكر. قلتُ له يا موسى دعنا ندردش عن قصتك التي وعدتني أن تحكيها لي عندما نرتاح من تعب الطريق، فأنا مثلك لم يزر عيني النعاس، قال:

إنني كنتُ في الأصل نصرانياً كما تعلم. قُلتُ له نعم أنا أعلمُ ذلك وأعلمُ أنك قد أسلمتَ منذ سنواتٍ طويلة بعد أن كنتَ قسيساً في الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا. قال لي بالضبط، وعندما كنتُ في بريطانيا كنتُ قد درستُ التبشير في مدرسةٍ إنجيلية منذ نعومة أظافرى بإحدى المدن الصغيرة في وسط بريطانيا. كان أبي بريطانياً يعمل في الجيش المحارب في منطقة جنوب شرق آسيا طوال فترة الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب تعرف على أمي الملايوية الجنسية ولما أراد الزواج منها فرضت عليه أن يُسلم فأسلم رغم أنه لم يحسن إسلامه ولكنه ظلَّ على كل حال مسلماً إلى يومنا هذا.

وكان ميلادي بمدينة لندن التي قضيت كل طفولتي فيها مع أبي وأمي وأشقائي طوال حياة أمي رحمها الله. أما أنا فقد كان نصيبي أن أعيش مع جدتي لأبي التي حملتنى منذ أن كان عمري أربع سنوات. ولما كانت هي مسيحيةً متعصبة فقد أدخلتنى في مدارس التبشير وعلمتني تعاليم الكنيسة. ولما كنتُ أجيد اللغتين الإنجليزية والملايوية التي تعلمتها من أمي

فقد ابتعثتنى الكنيسة في سنٍ مبكرة لأكون أحد المبشرين في منطقة أندونيسيا وبورنيو وما جاورها من بلاد جنوب شرق آسيا.

ظللتُ في هذه البقاع زهاء السبع سنوات أدخلتُ فيها العديد من الناس في النصرانية وأسهمتُ في بناء عددٍ من الكنائس. وفي يومٍ من الأيام سألنى بعض الناس الشغوفين بالمعرفة عن بعض الأمور التي تتعلق (**بالثالوث المقدس**) وبالذات الإلهية وصلب المسيح و (**مجيء محمد**) وما إلى ذلك. ولما لم تكن لديَّ إجاباتٌ كافية عن هذه التساؤلات قررتُ أن أقطع رحلتي وأذهب إلى الفاتيكان لأنهل من منبع العلم الصافي فيها وأعرف الإجابة عن كل تلك التساؤلات وغيرها. وأخبرتُ زملائي من المبشرين والقساوسة بعزمى على الرحيل، فوافقوا جميعاً على الفكرة، وبقوا هم في جزيرة بورنيو يبشرون بالمسيحية ريثما أعود من رحلة الاستفسار تلك.

دخلتُ الفاتيكان في يومٍ شديد البرد، وطلبتُ مقابلة البابا لأطرح عليه تساؤلاتى. فلم أنجح في تحديد موعدٍ معه رغماً عن وجاهة الأسباب التي حدت بى للمجيء إلى هذه الديار في هذا الوقت الصعب. وقررت إدارةُ الفاتيكان أن أقابل رجلاً آخر من كبار القساوسة المرموقين في الدير. ترددتُ عليه عدة مرات وكان في كل مرةٍ يشيح عنى بوجهه رغم إنني شرحتُ له سبب مجيئي من أدغال آسيا للفاتيكان في هذا الظرف العاجل وفي النهاية دخلتُ مكتبه وأفصحتُ له عن هويتي، وأخبرته أنَّ الزملاء هناك بانتظاري وأنَّ عجلات الزمن ليست في صالحي. فقال لي عماذا تريد أن تسأل؟ قلتُ له أريد

أن أسأل عن الله. وكانت المفاجأة بل الصدمة التي لم تصدقها أذني أن قال لي: «**إنَّ الإله الذي تسأل عنه هذا تحت حذائي، أرجوك ألا تزعج نفسك بمثل هذه الأمور فأنت ما زلتَ شاباً فلماذا لا تبحث لك عن عمل غير هذا**».

لم أصدق أذني ودارت الأرض برأسي كمن أغمي عليه ولكني تمالكتُ نفسي لأستوثق مما أسمع. ولما شعر الرجل بموقفى قال لي أنا آسف، أرجو أن تأتي إلىَّ في المساء وأنا أسكن في هذا المبنى. خرجتُ منه وقدماي لا تقويان على المسير من هول المفاجأة. هل أنا في حلمٍ أم في منام!؟

وانتظرت بفارغ الصبر سويعات المساء، ووجدت أقدأمي تهرول نحو منزل القديس علني أسمع غير ما سمعتُ في ذلك الصباح. دخلت عليه في الوقت المحدد فرأيتُ فتاتين من أجمل مَن رأيت في حيأتي كانتا تسقيانه خمراً وكان يجلس في وضعٍ لم تصدقه عيناي. كان الثلاثة في قمة النشوة وكأنهم في أحد كبريهات سانباولو أو في مشهدٍ من مشاهد الإغراء والغرام في أكبر استديوهات هوليوود.

دارت برأسي الأفكارُ من جديد ! ودعانى القديس لأجلس على كرسيٍ حول المائدة الصغيرة التي حوت عدداً من زجاجات الويسكى. وصبَّ كأساً طويلةً وقدمها لي، فقلتُ له أنا لا أتعاطى الخمر لأنَّ دوري الذي أقوم به كمبشر لا يسمح لي بذلك. رمقنى بنظرةٍ ملؤها الاحتقار والاستخفاف، وقال لي هل ما زلت في سخافاتك هذه؟ وكرر لي نفس ما قاله في

الصباح. عندئذٍ تأكدتُ أنَّ المسألة جد وليست نزوةً وقتيةً كما حسبتها عند زيارتى الصباحية.

في تلك اللحظة دارت بخلدى عشرات التساؤلات وطاف خيالي عبر كل السنوات التي قضيتها مشغولاً بدراسة التبشير المسيحي وممارسته في أحلك الظروف. وتذكرت كل المناظرات التي أجريتها مع فقهاء الأديان من مسلمين ويهود. وتوقف تفكيري فجأةً عند قصةٍ مثيرةٍ كنا نسمعها في إنجلترا عن فتىً إنجليزي من المتعصبين للمسيحية زار الفاتيكان.

كان ذلك الفتى البريطاني متعصباً للديانة المسيحية ولتعاليم الإنجيل، وفي يومٍ من الأيام سافر إلى الفاتيكان وعاد منها مذهولاً من هول ما رأى. وقبل أن يُمضى وقتاً قصيراً بين أهله وذويه اغتالته يدٌ مجهولة في جنح الظلام. ثم بدأ مسلسلُ الاغتيالات يصيب أهله واحداً تلو الآخر حتى هلكوا جميعاً. وكانت الشرطة في حيرةٍ من أمر ذلك الشاب وتلك الأسرة. وفي النهاية جاءتنا الشائعات في الكنيسة أنَّ هذا الشاب قد تسلل إلى جناحٍ في مكتبةٍ في باطن الأرض واطلع على أسرارٍ خفية لا تريد الكنيسة أن يطلع عليها أحد.

هذه الأسرار تتعلق بنسخٍ أصلية من الإنجيل ومخطوطات وكتب توضع في مكان ما من هذه المكتبة وكلها تؤكد أنَّ هناك نبياً اسمه أحمد سيأتي بعد المسيح وعلى الناس اتباعه. والكنيسة تعلم كل هذا، ولكنها لا تريد نشره على الناس حتى القساوسة لأنه سيكون الفتنة الكبرى للمسيحية في العالم. وهي لا تريد تمزيق هذه المخطوطات

والكتب ليقينها أنها حق وإرث لا يجوز المســـاس به. ولذلك أوعزت لرجالها بقتل ذلك الشـــاب البريطاني والخلاص من أسرته حتى لا تسول لأحدٍ نفسه بعد ذلك أن يسبر أغوار هذا الأمر الخطير. تذكرتُ كل هذه القصـــة -والحديث ما يزال لموسى- وقررتُ أن أخوض الصعاب وأستكشف المجهول، خصوصاً وأنى علمتُ مســـبقاً أنَّ مفتاح هذه المكتبة الخفية بيد هذا الرجل الذي أمامي.

تملكني الشـــعور بخوض التجربة، وبدلاً من تمســـكي بالمبادىء التي تعلمتها منذ صغرى في الكاتدرائية، والتي تقضي بأن لا أتعاطى الخمور ولا أدير كئوسها بدأتُ أصبُ له الخمر بنفســـي مع الفتاتين اللتين غابتا عن الوعى بفعل الخمر. وشـيئاً فشـيئاً غاب ثلاثتهم عن الوعى تماماً، عندها صـرَفْتُ الفتاتينِ وقلتُ له هيا بنا إلى المكتبة لنقضي فيها بعض الوقت.

كانت دهشـتى أن قام طائعاً بلا تردد وظللت أقوده وهو يترنح حتى نزلنا إلى سـراديب في باطن الأرض وذهلتُ لما أرى. أضـــخم مكتبةٍ أراها في حياتي. عشـــراتُ الألوف من الكتب والمخطوطات كانت مرصـوصـــةً في الأرفف التي حواها ذلك المكان الأسطوري. وإنتابني شعورٌ جارف بالتهام كل هذه الكتب لو أستطيع إلى ذلك سبيلا.

تجولتُ ببصـري كالمجنون، لا أدري ما الذي قادني إلى هذا الفضـول وماذا أريدُ بالضـبط. وظللتُ أتلفت يميناً ويسـاراً خوفاً من المجهول. وفجأةً نظرتُ لصـــاحبى فوجدته كالنائم من فرط الســـكر والإعياء وبدأت أفتح بعض الكتب وأرمق

عناوينها بسـرعةٍ فائقة، وفجأة دارت الأرض برأسـي ولم تقف. إنه الكنز الذي ظللتُ أبحثُ عنه منذ زمان، ياللهول مخطوطةٌ مترجمة للغة الإنجليزية لإنجيلٍ قديم لم تقع عيني منها إلا على قول المسيح: [***أنا أبشركم برسولٍ سيأتي من بعدي اسمه أحمد***].

قرأت هذه العبارة مراتٍ ومرات وتسمر بصرى فيها كأني جئت من عالم الغيب لأكتشف أسرار الوجود. فكرتُ في الهروب من المكان ولكنَّ قدمىّ لم تطاوعانى فبقيت أتجول ببصـرى في بقية الرفوف.

وتكررت المفاجأة بعد أقل من ثلاث دقائق، حيث وقعت يدى من وسـط كل هذه الملايين التي أمامي من الكتب على كتابٍ اسمه Secrets of Mount Sinai أي (**أسـرار جبل سـيناء**)، وكنتُ قد سمعتُ عن هذا الكتاب مراراً من أحد القساوسة الشغوفين بحوار الأديان والمتمردين على تعاليم الكنيسة، حيث قال لي إنَّ هذا الكتاب قد كُتب بعد زيارة الرئيس المصـرى الراحل محمد أنور السـادات للقدس حيثُ وقع على معاهدة الصلح مع إسـرائيل. هذا الكتاب قد أشـار بوضـوح إلى بعض المخطوطات القديمة لنسخ من الإنجيل الأصلي قبل أن تمسه يد التغيير وجدها أحد الفلاحين الفلسطينين عندما كان يحفر جدولاً في أرضـه الزراعية. ولما كان ذلك الفلاح يجهل قيمة هذه المخطوطات التاريخية فقد اشتراها منه بعض علماء الآثار البريطانيين وساوموا فيها الكنيسة البابوية التي دفعت لهم أموالاً طائلة مقابل التسـتر على محتويات هذه المخطوطات التي تؤكد قول المسيح إنَّ هناك رسولاً سيأتي من

بعده إسمه أحمد. وحفظت هذه المخطوطات المهمة في (**مكتبة الفاتيكان**). ولما كان هذا الكتاب قد أشـــار إلى هذا الأمر بالتفصـــيل فقد حاولت الكنيســـة إعدامه واحتفظت ببعض النسخ منه في مكتبتها السرية.

وجدتُ هذا الكتابَ أمامي، وتصـفحته على عجل وهممتُ بوضـعه في أحد الجيوب التحتية للسـترة الثقيلة التي أرتديها من شـدة البرد القارس في تلك الليلة، وهنا انتهرني القسـيس الذي أشـار عليَّ بالخروج من ذلك المكان وإلا فسـوف يحدث ما لا تُحمدُ عقباه، ولكني لحســن الحظ كنتُ قد فعلتُ ما أريد. وخرجتُ في حلك الليل البهيم لا أدري ماذا أفعل وأحسســتُ أنَّ عقلاً جديداً قد وُضـع مكان عقلى وأنَّ روحاً جديدة قد سـرت في جسـدى تلحُ عليَّ أن أصـرخ ملء فمى. طاف بى الخيال الجانح في شـــتى المدائن والقرى. وأخيراً حســـمتُ الأمرَ ألا أعود إلى رفاقى في البلاد الآســـيوية وإنما توجهتُ في أول طائرة إلى بريطانيا.

وصـلتُ إلى مطار هيثرو العريق في لندن وإحسـاسٌ غريب يملأ كيانى كنت أحســـــبُ أنّ جميع الناس يرمقونني بنظراتهم الجريئة وكنتُ أحسُّ بأنَّ كل جزءٍ في كياني قد تبدل وأنَّ كل خَلَجةٍ من خلجات نفسي تحاول أن تكشف أسرار الوجود. أخذتُ أول سيارة وجدتها أمامي وتوجهتُ صوبَ مسجدٍ صـــغير في قلب لندن كنا نتردد عليه أيام أن كنا صـــغاراً في مدارس التبشـــير، وكنا نتجادل مع إمامه الذي تربطنا به معرفةٌ قديمة امتدت لســـــنوات. كنا طوال الوقت نتحاور ونتجادل عن المسـيحية والإسـلام وخصـوصـاً عن التوحيد من

منظوره الإسلامي وفكرة الثالوث المقدس التي حملتنى من بين غابات الملايو وعادت بى إلى الفاتيكان والآن تعيدنى إلى المسجد الذي بدأ منه الحوار.

كان الحوار يشتد بيننا إلى درجة الشجار ولكنا نسعد به حيث كنا طلاباً للحقيقة. دخلتُ على إمام المسجد بعد سنوات من الفراق أملتها عليَّ ظروف الترحال في أقصى أقاصى الدنيا. كان الشيب قد خط على رأسه وبدت التجاعيدُ تغزو وجهه الوقور رغم أنَّ البريق كان يشع من عينيه الصغيرتين.

حييتُه على غير عادتي بالتحية التي كان يفضلها بين التحايا وهي (**السلام عليكم**). ردَّ عليَّ والدهشة قد عقدت لسانه وقال لي هل جئت ثانيةً للعراك في أمرٍ جديدٍ بعد كل هذه السنوات؟ قلتُ له كلا وإنما جئتك اليوم مؤمناً بمحمد ومصدقاً بالله الواحد الذي هدانى إلى نور الإسلام. لم يصدق الإمام ما سمع، وعلت قسمات وجهه سحابةٌ من الفرح الغامر حسبتُ أنها ستهطل برداً وسلاماً على ثوبه الناصع البياض.

قال لي ما شاء الله وتبارك الله، قل لي بربك ما الذي حدث يا موسى؟ جلستُ على الأريكة الصغيرة التي كانت بجانب سريره الصغير وشرحتُ له كل شيء بالتفصيل وقلتُ له بربك لا تبح بهذا السر الخطير لأي إنسان حتى ينجلى الأمر أمامي بصورةٍ كاملة.

قال: «**أولم تؤمن؟**» قلتُ: بلى، ولكني أخشى أن يكون مصيري كمصير الشاب البريطاني الذي تعرفه ونعرفه تماماً. لقد دخل الإسلام قلبي، وتملكني بشكلٍ غريب بعد تلك الحادثة

وظللتُ أتردد على المسجد بشكل منتظم أتحدث مع ذلك الإمام وأنهل من معين المعرفة خصوصاً ما يتعلق بذات الإله وعبودية النبى وهما الأمران اللذان شغلا فكرى طوال سنواتى بالكنيسة. ولما أحسستُ بالأمان وأنَّ أحداً لم يتعرض لي بسوء آليتُ على نفسي أن أعود إلى جنوب شرق آسيا للتبشير بالإسلام في نفس الأماكن التي كنتُ أمارس فيها التبشير بالنصرانية، حيث إنني تجولت في الكثير من ربوع جنوب شرق آسيا ضمن مجموعة من جماعة التبشير الكنسى التي وصلت إلى هذه البقاع منذ زمانٍ طويل. وظللتُ أذكر تلك العشرات بل المئات من الأسر التي نقلناها من الوثنية إلى النصرانية، وآليتُ على نفسي أن أعيد كل تلك الكنائس والأديرة التي أسهمت في بنائها إلى مساجد لتوحيد الله وها أنذا أنفذ ما نويت.

طار النعاس من عيوني بعد أن فرغ موسى من تلك القصة المثيرة التي تركت في خاطرى ألف سؤال ولكن رغم ذلك قلتُ له تصبح على خير فقد كانت عقارب الساعة تميل إلى فجر يومٍ جديد أقبل على الدنيا.

وقبل أن أفرد الغطاء على جسدى فوق ذلك الحصير المفروش على أرضية المصلى كان موسى قد راح في ثُباتٍ عميقٍ وعلا شخيره على كل الأصوات.

وبعده استسلمتُ لنومٍ عميق على أمل الرحيل غداً من هذه الغابة التي صارت حبيبةً لأنفسنا عائدين إلى مدينة كوالا لمبور. وانقضت بذلك أسعد الأيام التي قضيناها بين غابات الملايو في

ولاية كلنتان بعد أن انطبعت في أعمق أعماق الذاكرة، وقد تبقى إلى الأبد.

❀ ❀ ❀

انتهى



المؤلف في سطور:

- الاسم: عوض إبراهيم عوض محمد
- سوداني، ولد بمدينة النهود، السودان
- متزوج، وأب لأربعة أولاد وبنت.
- يتحدث العربية+ الإنجليزية+ الملايوية
- مذيع، ومعد برامج، ومحرر، ومخرج.
- كاتب صحفي، وشاعر، ومؤلف، ومترجم، ومدرب.
- نال دراساته العليا والتخصصية بماليزيا، والولايات المتحدة، والسودان.
- بروفيسور بكلية الإعلام، جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، السودان.
- عميد كلية الإعلام بجامعة الوسيلة للعلوم والتكنولوجيا.
- مدير قناة الأمل التلفزيونية الفضائية.
- سفير النوايا الحسنة لمكافحة الدرن بالسودان لدى منظمة الصحة العالمية.
- رئيس لجنة الإعلام لجائزة الشيخ البرعي برئاسة الجمهورية.
- عضو هيئة المستشارين لمجلس الوزراء الموقر.
- عضو الهيئة الاستشارية لوزير الإعلام.
- المستشار الإعلامي لوزير التجارة الخارجية.
- عضو دائرة علوم الاتصال بمعهد إمام جامعة الجزيرة.
- عضو مجلس الأمناء لجامعة غرب كردفان.
- عضو مجلس الأمناء لعشر منظمات إنسانية.
- نال درجة الأستاذ المتخصص في علوم الاتصال من جامعة أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية.
- نال درجة الدكتوراه الأولى في وسائل الاتصال الجماهيرية واللغويات (اللغة الإنجليزية) من جامعة الملايو بكوالالمبور.
- نال درجة الدكتوراه الثانية في الإعلام، من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان، السودان.
- نال درجة الدكتوراه الثالثة في العلوم السياسة من جامعة الزعيم الأزهري.